في الاول من أيار عام ١٩٥٩ ، نظمت أضخم مسيرة عراقية انطلقت من منطقة القصر الابيض ، مع الساعة الخامسة عصرا مرورا بالباب الشرقي فشارع الرشيد ، لتحتشد امام وزارة الدفاع حيث مقر الزعيم عبد الكريم قاسم . ولتظل متأججة حتى ساعات الصباح المتأخرة من اليوم التالي. و قد ظهر الزعيم قاسم مرتين وكانت آخر اطلالة للزعيم الى المتظاهرين عند الساعة الخامسة صباحا.

عبد الكريم قاسم يسهر حتى الصباح مع اضخم تظاهرة عراقية

زمان

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2069) السنة الثامنة

الإثنين (14) اذار 2011

2

أطوار غريبة في باشوات بغداد

أطوار غريبة في باشوات بغداد

جعفر الخياط
مترجم وباحث راحل

كان الحكم العثماني الذي خضع له العراق أربعة قرون طويلة غريباً في كثير من أحواله وأطواره. وكان الباشوات الذين يعينون من الباب العالي للحكم فيه يؤلفون مجموعة متنافرة يختلف أفرادها اختلافاً بيّنا في سوياتهم ومداركهم، وفي عاداتهم وأحوالهم، بحيث يستطيع المرء أن يجمع مجموعة طريفة من أحوالهم الشاذة وأطوارهم الغريبة.

فقد تولى الحكم في بغداد سنة سبعة وتسعين وخمس مئة وألف للميلاد حسن باشا الوزير ، وعهد إليه السلطان بتأديب السيد مبارك أمير المشعشعين في الحويزة الذي تجاوز على جهات البصرة وعاث فسادا فيها على ما يول. وكان انتدابه لهذه المهمة من قبيل الاعتماد عليه ، لأنه كان على ما يروي "جلبيا" شجاعا.

علة أن أمر غريب ما يروى عنه أنه كان مغرورا كثير الإعجاب بنفسه، ميالا إلى الأبهة والفخفخة . ولذلك كان يحيط نفسه بعدد كبير من الحشم والأعوان ،وبالكثيرين من رجال الحاشية على اختلاف أنواعهم وأزيائهم ، مضارعا بذلك الملوك والسلاطين . ثم ذهب إلى أبعد من هذا فصنع له ، حينما تربع على دست الحكم في سراي بغداد ، سريرا فخما كبير الحجم بلغت تكلفته خمسين ألف قرش. لأنه بالغ في تزويقه وزينه بزينة الأزهار والأثمار، التي صاغها من الفضة الخالصة . وقد أطلق على هذا التخت أسم « كاخ بهشت" . فظل بسلوكه هذا موضع تعجب الناس وتندرهم ردحا طويلا من الزمن . وهذا الباشا هو الذي بنا جامع الوزير المعروف ببغداد اليوم . وفي غضون سنة سبعة وأربعين وستة مئة وألف صدر الفرمان الهم ايوني بعزل باشا من باشوات بغداد يدعى إبراهيم ، فأعلن العصيان وقبض على بغداد بيد من حديد ، ثم جمع من حوله قطعات الجيش المحلي فتحدى بها الدولة العلمية . وبدلا من أن تبادر الجهات المسؤولة في الأستانة إلى انتقاء رجل كفء يحل في محله وينتزع بغداد منه وقع اختيارها على خصي من خصيان البلاط العثماني يدعى سميز موسى باشا ، أي موسى باشا السمين. وكان الباشا السمين هذا معروفا ببدانته المفرطة وعجزه عن السير والحركة ، ومشتهرا بطبعه العصبي ومزاجه الحاد. والغريب في الأمر أن السلطان إبراهيم الذي عينه كان يبتغي من تعيينه في هذا المنصب أن يرفع الكلفة عنه ، ويخفف أعباء الحياة عن كاهله، لأن الاشتغال في مثل هذا المنصب الخطير لم يكن في نظره ألا عملا ترفيهيا لا يتطلب غير قليل من الجهد وشيء لا يؤبه به من التفكير، ومع جميع ما كان في هذا الباشا من تقاط ضعف وعدم لياقة للمنصب أصبح حينما تسنم كرسي الباشوية حاكما بأمره، وبرهن خلال مدة حكمه كلها على استهتاره المتناهي بالقوانين والقيم واستهانته بالأرواح والأنفس .وكان أعماله كانت تأبى ألا أن تكون معبرة عما كان متسترا في تضاعيف جسمه الثقيل المترهل من أمارات مركب النقص الشديد بأنواعه وألوانه. فقد أطلق الحرية للجنود الانكشارية الذين تغلبوا على سلفه العاصي في الاعتداء على الناس والتجاوز على الوجوه واربا الثروة . وكان الجو الإرهابي العصيب الذي خلقه الباشا السمين ، وحلفاؤه الانكشارية المعربدون في بغداد المرزوءة به خير جو تفرخ فيه أطماعه وتنفذ بواسطته خططه في النهب والابتزاز.

وفي سنة اربع وخمسين وستة مئة وألف أعلن حسين باشا أفر اسياب عصيانه في البصرة، وأنشق عن الدولة العثمانية ، فسار لتأديبه على رأس جيش عرمرم مرتضى باشا والي بغداد. ولكنه خاب في مهمته لأنه تنازع مع قادة جيشه وأدى النزاع إلى تخلي الجيش عنه وعودته إلى بغداد. وحينما لحق بجيشه وجد أبواب بغداد موصدة في وجهه، وأعقب ذلك حصول تطورات غريبة أدت إلى عزله وتعيين رجل في محله يدعى آق محمد باشا . غير أن الباشا الأبيض هذا كانت أيامه في بغداد كلها أياما سودا لم يذق فيها طعم الراحة ، ولم يتمتع خلالها بالهدوء ورغد العيش . فقد قضى نصفها بالأمراض والعلل ، ونصفها الآخر في معالجة المشاكل وإحباط الفتن . وقد حاول الترفيه عن نفسه بهواية الصيد المحببة إليه فلم يجده لذلك نفعا أو يغنيه فتيلا ، مع أنه كثيرا ما كان يترك المدينة بأجوائها المتوترة ومشاكلها التي كانت تنتظر الحلول المعالجة فيبتعد عنها إلى البراري والقفار وحيدا فريدا . وقد ضاق ذرعا بالأوجاع التي ظلت تنهك قواه وتنغص عليه العيش ، فتشبث بعقيدته الراسخة في الرقى والتعاويذ لعلها تأخذ بيده وتنقذه من براثن الألم والمرض . ثم التجأ إلى الملالي والدراويش لعل الله ينزل عليه البرء والشفاء عن طريقهم أو يخفف عنه البلوى بأدعيتهم . وحينما برح به المرض ، وأصابه الضعف والهزال بحيث صار يمتنع عن تناول الأدوية والعقاقير جاء له كتاب ديوانه ، الشاعر العندليب عبد الباقي وجدي ، بدرويش من دراويش المولوية الأخيار فجسه جسا خفيفا وأخذ يدعو له بالشفاء القريب . ثم عاد إلى التكية المولوية بالقرب من سوق "المولاخانة" فجمع جمعا من زملائه الدراويش ، وبعد أن قدم لهم الطعام والحلويات توسل أليهم بأن يبتهلوا إلى فاطر السماوات والأرض بان يمن بالشفاء العاجل على عبده الباشا الوالي ويسبغ عليه جلابيب الرحمة وأثواب العافية. وبعد أن قرأ الدراويش الفاتحة قاموا إلى ذكرهم فتحلقوا في حلقاتهم المعهودة ، وأخذوا يبتهلون إلى الحق عز وجل بشفاء الباشا الأبيض ، ثم كرروا ذلك أياما ثلاثة ، فعادت بذلك الصحة إلى جسم الباشا العليل بقدرة قادر ولبس ثوب العافية بإلهام غيبي من ذلك الدرويش الصالح . وكان خاصكي محمد باشا ، الذي أعقب الباشا الأبيض هذا، يسبح وحده في متناقضاته. فمع جميع ما كان عنده من خبرة في الحكم ومنزلة في البلاط العثماني الذي نشأ فيه ، كان يتصف بمجموعة من السجايا والأطوار المتناقضة فقد كان رجلا بهي المنظر حلو الشمائل كثير الميل إلى الفخفخة والأبهة على شاكلة حسن باشا الوزير . ولذلك عمل حينما تولى الحكم في سراي بغداد على أن يكون له ديوان فخم باذخ يجلس فيه فيكلم الناس من وراء ستاره بطريقة لم تكن مألوفة عندهم . ونظم الأمور فيه بحيث فرض على الموظفين والمستخدمين المحيطين به أن يلبسوا ألبسة خاصة، منها "الفرجية" ويعملوا بموجب أنظمة ومراسيم معينة. وصار يجلس في كثير من الأيام فيبذل للفقراء والمستحقين بذلا سخيا ويبالغ في التلطيف والأنعام على طبقات معينة من الناس. ومع جميع ما كان يبديه من مظاهر التدين ، والعناية بتعمير المساجد والعتبات المقدسة في العراق والحجاز ، فقد كان ميالا إلى الأنس والطرب ومولعا بمعاقرة الخمرة وبنت الحان . ولذلك كان يقضي أيامه ولياليه معظمها مع الغواني والمغنين ، وتعاطي المشروب في رابعة النهار . وقد كان من الطبيعي والحالة هذه أن تتسرب الخمرة والنساء في أيامه إلى جميع الأوساط .

ونعرف عن مرتضى باشا ، الذي تولى الحكم في ولاية بغداد ثلاث مرات غير متتاليات في أواسط القرن السابع عشر ، ثلاث خصال تبدو غريبة متصفة بشيء غير يسير من الشذوذ بالنسبة للكثير من مقاييس الحكم المعتاد . فقد كان يجامل العوام ويتقرب أليهم تقربا غير اعتيادي في شتى الأحوال والمناسبات ، وكانت بابه تبقى مفتوحة للجميع في الليل والنهار ، ولم يكن يحجز بينه وبين الناس أي حاجب أو موظف . حتى روي عنه أنه دخل عليه في يوم من الأيام احد المراجعين بعد أن أنفض عنه خدامه فأيقظه من نومه وكان قد اخلد إلى الراحة وقدم إليه عريضة كان يحملها بيده ، ولما لم يجد الباشا حوله من يناوله المحبرة والقلم طلب إلى صاحب العريضة نفسه أن يأتي له بهما ، وأصدر له الأمر اللازم في الحال جبرا لخاطره . وكثيرا ما كان يشاهد وهو يتجول في الأسواق والشوارع لوحده ، ويلتجئ إلى المقاهي فيستريح فيها . وهناك كان يفصل في القضايا التي تعرض عليه ، ويبت في أنواع شتى من الدعاوى أو يحسم الخصومات. وكان علاوة على ذلك فوالا يرجم بالغيب على ما يروى، فيقرأ منويات الناس ويتنبأ بقدوم القادمين ، ولذلك كان العوام يستبخثون به ويستمدون من سعده . ومما يرويه عنه في هذا الشأن مؤرخ بغداد وأديبها في ذلك العهد مرتضى نظمي أن سماكا من السماكين ألقى بشبكته في النهر حينما هو مرتضى باشا من الجهة التي كان يقف فيها فأصطاد عشرين سمكة في الحال لأنه كان قد رماها وهو يذكر أسمه . ويروى كذلك أن أحد الملاحين دخل عليه ذات يوم فقدم له شمعة كانت بيده، وأخبره بأنه كان قد نذرها له حينما صادفت سفينته عاصفة هوجاء كادت تغرقها في النهر لو لا أن يستمد من سعده هو ويندبه في ملمته. على أن مرتضى باشا كان مع هذا كله مفرطا في اللهو ، ميالا جد الميل إلى معاشرة النساء والقصف معهن في الداخل والخارج . فكثيرا ما كان يحيي الحفلات الداعرة في بيته في المدينة ، أو في المخيمات التي كانت تقام له خارجا في العراء ، فيقيم فيها الضيافات التي كانت تفتح للجميع ويؤتى أليها بالراقصات والمغنيات على ملأ من العالم . وبذلك كان يعد مثلا سيئا لموظفيه وحاشيته ، وقدوة غير حسنة لكثيرين من الناس.

وقد كان الوالي احمد باشا ، بن الحاج حسن باشا الكبير ، على درجة غير يسيره من غرابة الأطوار كذلك . فقد نشأ أميا لا يحسن القراءة والكتابة طوال أيام حياته . لكنه رزق بسطة في الجسم ومتانة في العضلات وذكاء في العمل ، وشخصية فذة جعلت من سيرته الحافلة بجلائل الأعمال شيئا خطيرا في الحق والحقيقة . وكان برغم كونه أميا لا يحسن القراءة والكتابة يتذوق الشعر بالعربية والتركية ، ويقدر رجال العالم والأدب فيقربهم وينعم عليهم . وكان ذكاؤه الحاد المقرون بقابليته الرياضية الخارقة ، وسخائه النادر بين الباشوات، وشخصيته القوية الفذة ، وهو الذي مهد له سبل النجاح في أدارة الولايات العراقية الثلاث التي عهدت إليه وهو في ريعان الشباب . وكانت تلك الخصال هي التي مكنته من الوقوف في وجه الطاغية نادر شاه ، الذي قدر له أن يحاصر بغداد ثلاث مرات متتاليات من دون أن يتوفق في الاستيلاء عليها . على أن أهم ما أشتهر به هذا الباشا "البهلوان" من المآثر والخصال بين الناس قابليته الرياضية الفائقة ، وقوته البدنية الخارقة التي ألانت له الحديد. فقد كان فارسا

ماهرا، يجيد ألعاب الفروسية بفنونها وحيلها ، وقويا جبارا يأتي بالعجائب إذا أخذ الرمح بيده أو جرد السيف من غمده. وقد رويت عن صفاته هذه قصص وروايات فيها الكثير من المغزى والطرافة. فيروى مثلا أنه رمى بسهم من بعيد ذات يوم فنبت في الحديد. ويروى كذلك انه كان يأخذ بقطعة اللباد السميكة ويبلها بالماء، ثم يلفها لفا قويا ويضربها بالسيف فيبترها كما تبتر الخيارة بالسكين. وانه كان يعلق قطعة من الورق في الهواء فيقطعها بسيفه الحاد وكأنه قد قصها بالمقص ويحكى أيضا انه كان يؤتى له بالصينية المصنوعة من النحاس فيمسكها بكلتا يديه ويشقها شقا ، أو يلويها ليا ويطويها كطي الورق. غير أن الذي اشتهر عنه في هذا الشأن قصة صراعه مع الأسد. فقد خرج يوما إلى الصيد بموكبه الحافل غلى منطقة عكركوف، وبينما كان يسير بين الآجام ومن ورائه نفر من حاشيته ومماليكه شاهد من بعيد أسدا أفزعه دنو الموكب ، فتحفز للأنقضاض على من فيه.

لكن احمد باشا كر عليه بفرسه وصال وجال من حوله بمهارة وقوة جأش حتى أصابه في أحشائه بحربة مرقت من تحت أبطه. فتجلد الأسد ووثب عليه ، لكن فرس الباشا عاجلته بفرسة من عندها علة أم رأسه فولى هاربا لا يلوي على شيء . فتبعه الباشا من جديد مع نفر من خدامه ، وأجهزوا عليه فقتلوه ، وسلخوا أهابه فحشوه بالتبن وجاءوا به إلى بغداد.

في الحقيقة أننا نفتقر كثيرا إلى المعلومات التاريخية القديمة التي تبحث عن ناحية الكرادة الشرقية ، ومما زاد في الطين بلة هو عدم اهتمام الباحثين بها في كتاباتهم واكتفوا بإشارات عابرة ، ولحد الآن لم نعثر على مقال مفصل عن هذه الناحية اللهم ألا الاسم القديم للكرادة ، الأول في معجم البلدين لياقوت الحموي ، والثاني في مجلة دار السلام (سنة ١٩٢١) لأنستاس الكرملي . ولهذا فقد جابهتنا صعوبات كثيرة عند كتابة هذا المقال. سبق وأن ذكرنا أن أسم الكرادة حديث ، أما اسمها القديم فهو « كلواذا « (بفتح الكاف وسكون اللام وفتح الواو وسكون ألألف بينهما ذال معجمة مفتوحة ، على ما يقوله (ابو الفدا) غير آن آخرين يكتبونها بالألف المقصورة (كلواذى) وآخرين بالياء (كلواذي) وآخرين (قلواذى) وآخرين حرفوها فسموها (حلواذي أو كالوادي) ، غير أن الاسم الراجع هو الاسم الأول المذكور أعلاه . أما سبب تسميتها بكلواذا فيوضح لنا ذلك ياقوت الحموي حينما يذكر أن أهل السير قالوا أنها سميت بكلواذا بن طهمورث الملك ، وفي كتاب محمد بن الحسن الحاتمي الذي سماه جبهة الأدب يبتدئ فيه بالرد على المتنبي ، وقال : قلت له ، يعني للمتنبي : اخبرني عن قولك

طلب المارة في الثغور ، ونشوة

مابين كرخايا إلى كلواذى

وأخبره هذا خطأ لأن الصحيح (كواذ) ، فقال له : وما الكلواذ ؟ قلت : تابوت التوراة وبها سميت المدينة . والكلواذ تابوت موسى عليه السلام . وحكي في بعض الروايات أنه مدفون في هذا الموضع فمن أجله سميت كاواذ . قال فأطرق المتنبي لا يجيب جوابا . وكلواذا بالأصل قرية قديمة منعزلة أختلف الباحثون في تعيين موقعها . ثم أتسع اسمها واصبحت تشمل القسم الجنوبي من بغداد في شرق دجلة ، حيث أن بغداد كانت تقسم إلى جانبين : الجانب الغربي والجانب الشرقي ، من الناحية الإدارية ، يقسم إلى قسمين : القسم الشمالي ويسمى باسم « طسوج نهر بوق « ، والقسم الجنوبي ويسمى باسم "طسوج كلواذا ونهر بين" وسمي الطسوج الأخير بهذا الاسم نسبة إلى قرية كلواذا ونهر بين الذي يجري فيه نهر دجلة .

أما فيما يتعلق بموقع قرية كلواذا بالضبط ، فلا يعرف موضعها بصورة دقيقة لحد الآن ، وقد اختلف الباحثون في تعيين موضعها . فالمستشرق الإنكليزي كي لسترانج يضعها في خريطته في المنطقة القريبة من معسكر الرشيد على نهر دجلة . ويرجع الدكتوران مصطفى جواد واحمد سوسة ، في دليل خارطة بغداد موضعها في تلول الزوية المعروفة اليوم باسم « أشن حاج عبد « أي تلول حاج عبد . والدكتور احمد سوسة يضع موقعها في معظم كتبه وأطالسه عند تلول حاج عبد (الليشان) . غير أنه في كتابه « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية»، يضع موقعها في منطقة المسبح الحالية . وجاء في مجلة العراق الجديد أن قرية كلواذا تقع على وجه التحقيق في تلول حاج عبد وهي تعرف عند أهل الكرادة باسم الليشان وتحرف احيانا فتنطق النيشان وهي تقع في منطقة (السبع قصور) عند ساحة الحرية . وقد زالت هذه التلول من الوجود بصورة نهائية قبل بضع سنين . وهكذا فالآراء مختلفة حول تعيين موقع مركز القرية بدقة ، وغير أن الراجح عندنا هو أن موضعها عند تلول حاج عبد الليشان وما جاورها لأنه لا توجد آثار مهمة في أخرى غير الليشان ولهذا فيظن أن موقعها في هذه التلول وليس في المسبح أو في منطقة معسكر الرشيد على نهر دجلة كما يميل البعض لأنه لا توجد آثار قديمة مهمة في مثل تلك المناطق تدل على وجود قرية معينة . أما موقع الليشان ففي منطقة « سبع قصور « في الجهة المحاذية لساحة الحرية في المنطقة الممتدة من الأراضي التي يحتلها معمل القير الحالي حتى بستان حاج عمران ، واكثرها شهرة التل الذي يقع في مكان معمل القير وما جاوره . يذكر الدكتور احمد سوسة أن تلول حاج عبد موضع قرية قديمة يرجع زمنها إلى « العهد البابلي فالعهد الساساني والعباسي « وقد عثر في « اسفل سفح تلول حاج عبده هذه على اجر بابلي مختوم نبوخذنصر يرتقي إلى الدور البابلي الحديث كما وجد في القسم الأعلى من التلول آثار ساسانية وآثار أسلامية « . وذكر صاعد الأندلسي (٤٦٢هـ) هذه القرية في كتابه طبقات الأمم فقال أنها كانت عاصمة الكلدانيين ودار مملكتهم . ويقول صاعد : « ثم تفرغت اللغة العبرانية والعربية من اللغة السريانية فغلب العبرانيون وهم بنو اسرائيل على الشام فسكنوها ، وغلبت العرب على البلد المعروف بجزيرة العرب المتقدم ذكرها وعلى الجزيرة المعروفة اليوم بديار ربيعة ومضر فسكنوا جميع ذلك وانكمشت بقية السريانيين إلى العراق وكانت دار مملكتهم العظمى منها مدينة كالوادي ـــ أي كلواذا « . غير أن مجلة العراق الجديد تنفي قول صاعد وتشير إلى أن الكشوف الأثرية لم تؤيد هذا القول حتى الآن اللهم ألا إذا اعتبرنا التلول الواقعة شرقي هذه المنطقة والتي اكتشفت فيها آثار دولة أشنونا العظيمة ، جزءا من كلواذا هذه .

أما المسعودي (٣٤٦هـ) فيقول :» الكلدانيون وهم السريانيون وقد ذكروا في التوراة .. وذكرهم ارسطوطاليس .. كانت دار مملكتهم العظمى مدينة كلواذى من أرض العراق وأليها أضيفوا وكانوا شعوبا وقبائل « . ويقول الأستاذ الأب أنستاس الكرملي أن كلواذا كانت

في سابق الزمن مدينة عظيمة ، ثم يستطرد بقوله موضحا قول المسعودي السابق الذكر: مدينة كلواذا من ارض العراق وأليها أضيفوا أي أن الكلدانيين تسموا باسم دار مملكتهم العظمى كلواذا ، وهذا قد أنكره العلماء المحدثون فضلا عن الأقدمين ، لأن الكلدانيين أو الكلدان منسوبون أو مضافون إلى كلدة أحد شيوخ العرب في العهد العهيد لا إلى كلواذا .

أما أبن العبري (ت ١٢٨٦م) فقال ما معناه : أن القدمين من اليونايين يزعمون أن حنوخ بن يردهو هرمس . وقيل ان الهرامسة ثلاثة واحدهم هرمس البابلي الذي سكن كلواذا مدينة الكلدانيين وكان بعد الطوفان وهو أول من بنى بابل بعد نمرود بن كوش .

هكذا فالآراء مختلفة بين الباحثين المعاصرين والكتاب والقدماء ، فالبعض منهم يعتقد انك لواذا كانت عاصمة الكلدانيين ودار مملكتهم العظمى في حين أن الآخرين ، وخاصة المحدثين، ينفون ذلك فيا قاطعا . ولكن يبدو مما سبق أنه لما عثر في (الليشان) على آجر بابلي مختوم باسم الملك نبوخذنصر يرتقى إلى الدور البابلي الحديث ، إضافة إلى آثار أخرى ساسانة ثم أسلامية ، فأنه يمكن أن نرجع أن كلواذا كانت أحد مخلفات الكلدانيين ، وللآثار الكلدانية التي وجدت في هذا التلول تدل على ذلك .

وكان أسم كلواذا شائعا في العهد الإسلامي حتى أن باب بغداد الجنوبي سمي باسم «باب كلواذا» لأنه يؤدي إلى قرية كلواذا . وكان الكتبة الفرس يطلقون عليها أسم « باب كلواذا» في أثناء الحصار المغولي . ومما هو جدير بالذكر أن باب كلواذا سمي بأسماء مختلفة فقد سميت بباب البصلية طرف بغداد في الجانب الشرقي منها نسبة إلى محلة البصلية وهي « محلة في بغداد متصلة بباب كلواذى ولعلها المحلة التي في جوار الباب الشرقي من أبوب بغداد « ومحلة البصلية هي أحدى المحلات التي يذكرها ياقوت الحموي على أن الخليفة المقتدي شيدها في هذا الجزء من المدينة . ويطلق حمد لله ـــ الذي دون كتابه سنة ٧٤٠هـ| ١٣٣٠م على باب كلواذا أسم باب الخليج . وحينما زار نيبهر بغداد سنة ١٧٥٠م كان يعرف هذا الباب باسم تركي هو « كرلك قابي « ولعل هذه التسمية تحريف لكلمة « قراناق قابي « ومعناها باب الظلام ، ويسميها تافرنييه سنة ١٦٣٢ « قره قابي « أي باب الأسود . ويسميها الرحالة الدنمركي نيبور باسم « كارلوك « كما ويسميها تيفنو باسم « كارانلو قابي « . ويذكر الأستاذ ناجي معروف أن هذه الباب قد هدمت في سنة ١٩٣٧م بعد أن كان كنيسة للإنكليز البروتستانت ، وأصبح محله في ساحة التحرير في أسفل النخلة التي كانت عند مدخله ، ولا تزال النخلة قائمة في طرف هذا الميدان المستدير قبالة مدخل جسر الجمهورية . ويعرف باب كلواذا اليوم باسم الباب الشرقي من جهة الشمال حيث يمتد عند هذا الباب جسر الجمهورية على نهر دجلة رابطا جانبي النهر . أما المسافة بين بغداد وقرية كلواذا فيختلف الباحثون في تقديرها أيضا فياقوت الحموي يذكر أن المسافة بينهما تبلغ فرسخا وحدا للمنحدر . ويقدرها المستشرق الانكليزي لسترانج بفرسخ واحد أيضا . ويقدرها أبن خردانبه بفرسخين . وبمثل هذا المقدار قدرها أبن حوقل (٣٦٧هـ) والاصطخري وجاء في تقويم البلدان لأبي الفدا أن المسافة تبلغ فرسخين . أما ابن رستة فيقدر المسافة بثلاث فراسخ والطريق منحدر مع نهر دجلة . ويذكر قدامة أنها تبعد عن جنوبي بغداد بفرسخين وبخمسة فراسخ إلى شمال المدائن . أما المسافة من كلواذا إلى مدينة النهروان فتبلغ أربعة فراسخ . ويذكر أبن رستة أن المسافة من بغداد إلى النهروان تبلغ أربعة فراسخ ، والطريق في نخيل ومزارع متصلة بالمصلى وتمر بنهر بين ونهر بوق حتى تفضي إلى النهروان ويخترقها واد . وكذلك يؤكد أبن حوقل صحة تقدير هذه المسافة ويقول : « وأما النهروان فمدينة يشقها نهر النهروان بنصفين في وسطها وهي صطيرة عامرة من بغداد على اربعة فراسخ كثيرة الغلات والخيرات والنخيل والكروم ولاسيما السمسم والحبوب ، ونهرها يفضا إلى سواد بغداد أسفل من دار الخلافة « .

جاء ذكر كلواذا في المصادر العربية منذ اوائل العهد الإسلامي . فقد ذكر الطبري كلواذا تحت حوادث سنة ١٢هـ وأشار إلى أن أهل كلواذا قد بعثوا إلى خالد ، عندما كان في الانبار وما حولها ، ليعقد لهم فكتابهم . ويروي الطبري أيضا أنه ليس لأحد من أهل السواد عقد قبل الواقعة ألا بني صلوبا وهم أهل الحيرة وكلواذا ، ثم غدروا حتى دعوا إلى الذمة ما غدروا .

وخلاصة القول : أن الكرادة الشرقية ناحية متوغلة في القدم ترجع إلى العهد البابلي القديم ونشأت فيها حضارات بشرية قديمة ، كما وقد اكتشفت في تلولها الأثرية ـــ وبضمنها تل حرمل وتل محمد وتل الضباعي ـــ أقدم شريعة مدونة في تاريخ البشر ، بعد شريعة أورغو ، وهي تسبق شريعة حمورابي بقرنين من الزمان . وكانت قوانين فيثاغورس وغيرها من القوانين الرياضة المعروفة في هذه المنطقة منذ العهد البابلي القديم . كما وجدت آثار في (الليشان)ـــ أيشان حاج ـــ ترجع إلى العهد البابلي الحديث فالعهد الساساني فالعهد الإسلامي . ويظهر أن هذه التلول كانت موضع قرية قديمة تسمى بـ (كلواذا) في العهد البابلي الحديث والعهد الساساني فالعهد العباسي . وكانت قرية مشهورة لقدمها إذ هي أقدم من بغداد كما يقول الأستاذ أنستاس الكرملي .

جلة بغداد . حزيران 1965

مقال نادر للجواهري

لماذا عاش الرصافي بعد موته؟

ولماذا يموت الأحياء من الشعراء؟

جليل العطية

للشاعر العربي الكبير محمد مهدي الجواهري، نثر جميل قد لا يرقى إلى مستوى شعره، ولكنه نثر فتان حاد، ألهب كثيراً من المعارك الأدبية والاجتماعية على صفحات الجرائد العراقية في الأربعينيات والخمسينيات. وكانت مقالاته النارية سبباً في تعطيل وسحب أجازات بعض هذه الصحف آنذاك. إلا أن القارئ لا يكاد يعرف من نثر الجواهري إلا نماذج قليلة تأتي في مقدمتها قطعته الشهيرة «على قارعة الطريق» التي ضمها ديوانه. أما سائر مقالاته ونتفه النثرية فلم يضمها كتاب، بل ظلت مبعثرة في بطون الصحف والمجلات العراقية، والرسائل الشخصية التي كتبها إلى أصدقائه وخلصائه.

الرصافي

من هنا ننشر اليوم واحدة من مقالاته المجهولة التي نشرها في مثل هذا اليوم قبل ستة وأربعين عاماً في تحية أستاذه الرصافي، مع مقدمة تتناول صلة الجواهري بالرصافي، وطبيعة الوضع السياسي والاجتماعي في العراق صبيحة نشرها.

عندما بدأ الجواهري يقرض الشعر أثناء الحرب العالمية الأولى (١٤-١٩١٨) كان معروف بن عبدالغني الرصافي من ألمع شعراء العراق والوطن العربي.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٣ أصدر الرصافي جريدة يومية سياسية باسم «الأمل» اقتداء بجميل صدقي الزهاوي الذي كان قد أصدر قبله صحيفة باسم «الأصابة».

كان الجواهري لا يزال يقيم في مدينته النجف، يتابع الحركة الأدبية والشعرية. وعندما اطلع على «الأمل» أعجبته، ووجدها فرصة ليعبّر عن إعجابه بالرصافي، فأرسل قصيدة عنوانها «صوت من النجف» وشحها بتوقيع «نجفي معروف» نشرتها «الأمل» في عددها الثاني والعشرين مطلعها:

أنابغة الشعب الذي دون حقه
تدافع يسراه ويحمي يمينه

وبعدما أنتقل الجواهري إلى بغداد التقى الرصافي في مقهى «عارف أغا» في شارع الرشيد المرة الأولى، ثم تعددت اللقاءات بينهما أثناء عمله في البلاط الملكي (٢٧-١٩٣٠) داخله وخارجه.كان الجواهري يعتبر الرصافي شاعره الذي يقتدي به في مضامير الوطنية والحرية والإباء والاعتداد بالنفس والالتزام بالقضايا الوطنية والقومية والوقوف إلى جانب الجياع والمحرومين.

وتجسد اهتمام الرصافي بالجواهري في القصيدة التي نظمها وأهداها إليه ومطلعها:

أقول لرب الشعر «مهدي الجواهري»
إلى كم تناغي بالقوافي الســـواحر

قال مير بصري في كتابه «إعلام الأدب في العراق الحديث» بعد أن أورد عدة أبيات منها: ثم ناغاه الجواهري فهزّ – كما قال – الأسد الرابض، الضائق ذرعاً بعرينه، المنطوي على نفسه ألماً وغضباً وكبرياء، فزار الأسد «الرصافي» وقال في معرض الجواب:

بك الشعر لا بي أصبح اليوم زاهرا
وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا

ثم أضاف: تذكرنا هذه المطارحة الشعرية بين معروف الرصافي والجواهري بالمراسلة الشعرية التي جرت في أواخر القرن الماضي بين الشاعر المنفي الشيخ محمود سامي البارودي والشاعر اللبناني الشاب شكيب ارسلان وقد نشرتها مجلة «الزهور» المصرية في مختاراتها.

وفاة الرصافي

وفي السادس عشر من مارس (آذار) سنة ١٩٤٥ توفي الرصافي فكان الجواهري ممن حضروا جنازته التي حملت إلى مقبرة (الأعظمية)، وقد تمنطق بعقال الرصافي الذي حمل مع ثوبه وعباءته فوق النعش، وبكاه بكلمة بليغة، مؤثرة، وليس شعراً. وقرر عدد من الأدباء والساسة العراقيين إقامة حفل تأبين للرصافي بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته، واختير الجواهري نفسه رئيساً للجنة الاحتفال، غير ان الحكومة العراقية منعت الحفل بسبب موقف الرصافي المؤيد لحركة ١٩٤١ المعروفة بحركة رشيد عالي الكيلاني المناوئة للإنجليز.

ولقد أتهم سليم طه التكريتي الجواهري في كتابه عنه (لندن-١٩٨٩) بأنه كان يحقد على الرصافي وزعم أن «القصائد التي قالها بعد سنة ١٩٥١ في الرصافي لم تكن كاملة، لأنها كانت تنظم لأغراض وبواعث أنية، ولم تكن نابعة من صميم فؤاده، وصدق مشاعره».

وبتأييد رأيه يستشهد بقصيدته التي نشرها في الذكرى الخامسة لوفاة الرصافي، ذات المطلع:

لاقيت ربك بالضمير
وأنرت داجية القبور

فقد كانت، غير كاملة وغير مستوفية لما يجب أن يقال في الرصافي، ولم يكملها إلا في مارس (آذار) ١٩٥٩ وبعد الإطاحة بالملكية.

إن المقالة الجواهرية التي ننشرها اليوم ترد على اتهام «التكريتي» وسواه من خصوم أبي الفرات الجواهري.

مفاوضات النفط

وقبل أن نقدم نصها نسلط ضوءاً على الظرف السياسي الذي كان يعيشه العراق والعراقيون وأفرز هذه المقالة الصرخة.

في السادس عشر من سبتمبر (أيلول) ١٩٥٠ شكل نوري السعيد «رجل العراق القوي» وزارته الحادية عشرة. وكان العمل الرئيسي للوزارة تعديل امتيازات النفط كانت هذه الامتيازات هي الأسس التي استثمر بموجبها النفط العراقي منذ بداية الإنتاج في الثلاثينيات. كانت مدة الامتيازات عموماً ٧٥ سنة، وبعد الحرب العالمية الثانية تغيرت الظروف العالمية، وكان من مظاهر هذا التغيير إطلاق الحريات العامة وبضمنها تشكيل الأحزاب والمنظمات، وقد شددت الأحزاب على ضرورة تعديل الامتيازات الممنوحة لشركات النفط الأجنبية بشكل تزاد فيه حصة الحكومة العراقية، ويتسع مقدار الإنتاج من النفط.

وقامت حكومة السعيد بفتح باب المفاوضات مع شركات النفط، وفي هذه الفترة شهد الشرق الأوسط حدثاً مهماً هو تأميم النفط في إيران على يد حكومة مصدق (٥مارس / آذار١٩٥١) وقد قوبل هذا الحدث بتأييد ومساندة القوى السياسية العراقية.

وفي ٣ فبراير (شباط) ١٩٥٢ أعلن السعيد التوقيع الرسمي لاتفاقية النفط في بغداد. لكن الأحزاب السياسية والاجتماعية رفضت الاتفاقية واستقال النواب المعارضون من المجلس النيابي احتجاجاً على الاتفاقية (في ١ فبراير / شباط) ووجهوا إلى الحكومة اتهامات بالوقوف إلى جانب الشركات التي تسلب ثروات الشعب الطبيعية.. في تلك الفترة كان الجواهري يرأس لجنة أنصار السلام التي شكلت في منتصف شهر يوليو (تموز) ١٩٥٠ ونشطت في تأييد أحزاب المعارضة ومهاجمة السلطة.

كان الجواهري ضمن الشخصيات السياسية التي وقعت على مذكرة ترفض اتفاقية النفط. وقد عطلت السلطة جريدة الشاعر «الرأي العام» بسبب مواقفها الجريئة ضد السياسة السعيدية، فأستعار جريدة «الثبات» لصاحبها محمود شوكت ليواصل حملاته العنيفة. في هذه الفترة حلّت ذكرى وفاة الرصافي في الخامس عشر من مارس (آذار) فلم يكتف بتحية أستاذه في قصيدته الرائية الشهيرة.. بل كتب مقالة نشرتها «الثبات» في عددها الثاني والتسعين في ١٨ جمادى الثاني ١٣٧١ هجرية المصادف للاثنين السابع عشر من مارس (آذار)

١٩٥٢م، عنوانها:
لماذا عاش الرصافي بعد موته؟
ولماذا يموت الأحياء من الشعراء؟
نشرتها الجريدة في صدر صفحتها الأولى موشحة بعبارة «بقلم الاستاذ محمد مهدي الجواهري» هذا نصها:
لماذا عاش «الرصافي» وسيعيش بعد موته؟
ولماذا مات وسيموت الكثيرون من الشعراء والأدباء في حياتهم! وفيهم من هو أبن «جيل» الرصافي وأبن بيئته، ومحيطه، وفيهم من تعاطى من فصول الشعر و"عناوينه" ما تعاطاه ونحا في «السياسة» و«العصريات» منحاه، وفيهم من أحسن الرصف ونمق في الأسلوب، وتمكن من «اللغة».
ولماذا عاش وسيعيش الرصافي وقد صدم بالمجتمع العراقي القاسي فقسا، وبحب الجمهور الجاهل والمتعصب في خرافاته المجدية عنده، المعللة لديه فأوجع، وبالغ في الجهر بما يعتقد! وفي الجهر بما يطبق من معتقداته هذه. وفي الجهر بما يحب ويكره.
ولماذا مات وسيموت الكثير من الشعراء أو ممن أحبوا أن يكونوا شعراء؟ أو ممن لا يزالون يغالطون ويخادعون بأنهم شعراء..! ممن عملوا ويعملون الآن وسيظلون عاملين حتى يموتوا.. أن يداروا المجتمع، وأن يتقبلوا بدعه وشيعه، وان يتزمتوا في مظاهرهم! ويتفلسفوا في «منطقهم» وأن يتقربوا من كل الطبقات! وأن يستميتوا في إرضاء «كل الناس»!.
لماذا يعيش الرصافي وقد أصر كثيراً وبالغ – بعض الأحيان – في الإصرار على أن يعرف الناس «عيوبه» ونقائصه ونقاط الضعف فيه، سواء ذلك في حياته الأدبية والشعرية.. من حيث الموضوع، ومن حيث الاستقامة.. ومن حيث الأسلوب والأداء.. وسواء في حياته الروحية أو المادية أو «الجسدية» الخاصة.
إن في الصميم من هذا السؤال نفسه في شتى ما ذكر من هذه النواحي، وفي شتى ما لم يذكر منها ليكمن الجواب، أي أن الرصافي عاش في حياته، وبعد موته، لأنه كان هو الرصافي نفسه في اليقظة والصحوة والشدة، والبيت والمقهى والفندق والبرلمان، لأنه كان الرصافي نفسه في الباطن، وفي الظاهر في الضمير واللسان، في النية وفي التطبيق.
لأنه لم يكن «منافقاً» ولا «مرائياً» ولا ذا وجهين أو أكثر ولا ذا لسانين أو أكثر.
لأنه لم يحاول وهو يرى ما يرى كرجل في القرن العشرين تقريباً.. من أمر البدع والشعوذات باسم الدين أن يرضي المبدعين والمشعوذين.
ولأنه لم يرد وهو يرى الدجل والشعوذة في السياسة العربية عامة والعراقية خاصة أن يرضي بأسم الوطن عن السياسة هذه نفسها فلاناً من رجال الحكم، وأن يخاصم بأسم الوطن و«المعارضة» لهذه السياسة نفسها فلاناً. ولأنه لم يرد، وهو يخالط الحياة في صميمها خيرها وشرها، جدها وعبثها، أنسها ووحشيتها، جوهرها وزيفها، أن يلبس لبوس الشاعر «مهزار الديلمي» الذي يخيل له أنه ضم المجد كله من أطرافه!.
ولأنه قد وجد نفسه أبن مجتمع مختلف وجيل منسوب مختلط، وأوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية يسودها الوضر والدنس والعلل، كان يأبى أن يكذب نفسه والناس والتاريخ بأنه «أبن السماء» وليس أبن الأرض وهذه الأرض العراقية ذاتها ونفسها. لو كان الرصافي قد أباح لنفسه ما أباحه ذلك الرهط الغابر وهذا الرهط الحاضر من الأدباء والشعراء لكان اليوم «غابراً» مثلهم، وغامراً أيضاً في سجل التاريخ، وكان قد خسر هذا المجد المتكرر كلما تكررت ذكريات اليوم الذي توفي فيه. لقد كان الرصافي رجلاً لأنه كان طبيعياً، ولا أجد تعريفاً للرجولة ولا تعليلاً أحسن من هذا التعريف والتعليل، كان لا يبالي أبداً بمن غضب، ولا بمن رضي في ما يراه حقاً. وكان لا يقبل أبداً أن يدفع من ضميره، ولا من لسانه ثمناً لإشباع أنانيات الأفراد والهيئات، وكان يتقيد في ما لا بد من التقيد به من المجاملات المألوفة، وكان يحتقر ما يزيد عن هذا المألوف لديه، وكان يكتسب بذلك «كما يكتسب اليوم من هم على شاكلته» حقد الكثيرين من متزعمين ومتحزبين وسياسيين، وكان يمسه أذى كثير، وبؤس كثير، وألم كثير أيضاً من جراء ذلك.
كان الرصافي عظيماً لأن عظمته تعلن عن نفسها بنفسها. وكان أبرز ما في هذه العظمة أنها كانت تكشف بكل جرأة عن مواطن الخلل فيها.
وكان الرصافي زعيماً لأنه لم يرد أن يكون زعيماً!.
وكانت شخصيته الناضجة بالألم والطموح الصادقين مصدر شعره، وكان شعره بوصفه هذا حلقة الوصل بينه وبين الجماهير الناضجة نفسها هي بهذا الألم وتلك المطامح.
وكان الرصافي شريفاً لأنه لم يدع بانسباغ حلة (الشرف) عليه فضفاضة لا خروق فيها ولا رتوق!.
وكان الرصافي وطنياً وشعبياً لأنه كان صورة صادقة لوطنه ولشعبه في لسانه ومجلسه وسمره ومقهاه.
وكان الرصافي كل ذلك، وفوق ذلك لأنه كان كذلك.. وليس أنه أراد أن يكون.. أو يدعى.. أو قال أو نظم أو كتب.
لقد كان الرصافي هو الرصافي.. صاعداً ونازلاً.. مجيداً وغير مجيد، ثائراً ومسالماً.. ولهذا فهو خالد.
ولهذا أيضاً كان موته عبرة لكثير من «الأحياء»!.
من مختلف الأوصاف وليس من الأدباء وحدهم الذين يطنطنون وينقنقون.. ويدعون.
إن الرصافي الميت لحي وان هؤلاء الأحياء لميتون.

الزهاوي

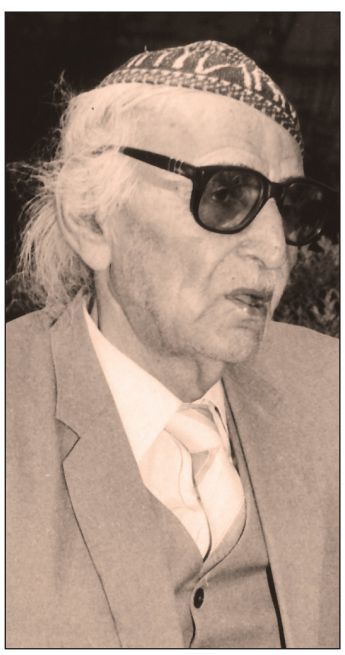
الجواهري

جنفييف ملكة العراق غير المتوجة

هل كانت جاسوسة لحلف بغداد؟

زين النقشبندي

كان المرحوم الدكتور كمال السامرائي قد تبرع بمكتبته العامرة إلى دائرة ديوان رئاسة الجمهورية في تسعينيات القرن الماضي وقد نسبت في حينه لحفظها في دار الكتب والوثائق العراقية ليتيسر للباحثين والمتتبعين الاطلاع عليها. وقد كشف العلامة د. السامرائي صاحب المكتبة المهداة لنا في حينه اثناء زيارتنا له قبل وفاته عن مستمسكات ومحاضر لملكة العراق المزعومة (جنفييف) وننشر صورتين نادرتين كنا قد عثر عليهما في وقت سابق ، وكان المرحوم الاستاذ الدبلوماسي البغدادي امين المميز قد اشار الى جنيف في كتابه(بغداد كما عرفتها) .
إن هاتين الصورتين الفريدتين التقطتا في فندق (سميراميس) الواقع في منتصف شارع الرشيد (في موقع جسر السنك حالياً) لمناسبة الحفل السنوي الذي اعتادت إقامته السكرتارية العامة لميثاق بغداد. ويشاهد في الصورة الأولى د. مهدي فوزي و(جنفييف) وعوني الخالدي سكرتير عام ميثاق بغداد والسيدة (ارنو) والدة (جنييف) مع خالد الجوربه جي، أما الصورة الثانية فيظهر فيها الحاج أمين المميز وكيل وزارة الخارجية آنذاك (الذي تطرق إلى هذا الموضوع في كتابه بغداد كما عرفتها) مع المدعية بعرش العراق ووالدتها.
وقصة هذه المدعية صارت معروفة إذ لاحقت مع والدتها فيصل الثاني آخر ملوك العراق أثناء إجازته في سويسرا وانتهت بطردهما وتسفيرهما من العراق عام ١٩٥٧.
وبعد ثورة ١٤ ثورة ١٩٥٨، أقامت (جنفييف) ووالدتها دعوى في المحاكم الأمريكية مدعيتين بان الأولى كانت زوجة للملك المخلوع القتيل والثانية شهدت على ذلك بأن ابنتها الوريثة الشرعية لتركة الملك فيصل في لندن. وتم ذلك بالتواطؤ مع السلطات القضائية البريطانية، وقد شملت التركة الدار الريفية للملك المخلوع الواقعة في المنطقة القريبة من قصر (ويندسور).
ولم تنته القصة عند ذلك، فقد أودع اللواء المتقاعد عبيد عبد الله المضايفي أحد شهود هذه المحكمة، وآخر مرافقي الملك فيصل، كافة المستمسكات والمحاضر المتعلقة بهذه الدعوى إلى العلامة د. كمال السامرائي باعتباره الطبيب الخاص للعائلة المالكة، ويبقى السؤال إذا كان إدعاء (جنفييف) عار عن الصحة فكيف دعيت لاحتفالات عيد تأسيس ميثاق بغداد مع والدتها، وهل كان ذلك صدفة. أم انهما كانتا جاسوستين للحلف المقبور.
اننا اليوم اذ نعيد فتح هذا الملف الذي كنا قد اثرناه في عام ١٩٩٦و نعيد ه لتعلقه بما سبق أن أشار إليه المرحوم المميز في كتاب (بغداد كما عرفتها) عن شخصية المدعية المذكورة، وكان المميز قد أفاد بأنها لم تكن إلاّ مدعية أفاقة ولم تكن لها صلة يؤبه لها في الأوساط الرسمية العراقية، إلاّ أن ظهورها في الصورة مع شخصيات رسمية عراقية مهمة، منها أمين المميز نفسه، أيام كان وكيلاً لوزارة الخارجية، يفتح المجال للتساؤل حول هوية هذه المرأة وعلاقاتها، ولربما استحق هذا الأمر أن يفرد بدراسة، خاصة مع توفر الوثائق المتعلقة بدعوتها إلى العراق في دار الكتب والوثائق في بغداد.

من أين جاءت تسمية كرادة مريم؟

ثمة أكثر من ضاحية في أطراف بغداد تعرف بهذا الاسم ، الذي يشير إلى كثرة استعمال الكرود وسائط لـلإرواء الزراعي ، واصل التسمية (كراد) على وزن فعال ، وهو صاحب الكرد ويجمع على كرادة . وهذه الصيغة من الجموع تكثر في اللغة الشعبية الدراجة . ومثالها :

زراعة: جمع زارع

عمالة : جمع عمال__وهو العامل ويطلق غاليا على عمال البناء

بلامة: جمع بلام __ وهو صاحب الزورق

سماجة: جمع اسماك أي السماك

والضواحي التي تسمى بهذا الاسم تمتد على جانبي دجلة . وهي :كرادة الصليخ ، شمالي بغداد على الجانب الشرقي من النهر ، والكرادة الشرقية الى الجنوب وتقع على الجانب الشرقي أيضا . وكرادة مريم على جانب الغربي المقابل للكرادة الشرقية (١) . وكانت هذه الضواحي الثلاث تشتمل على المزارع وبساتين كثيفة تروى من دجلة بواسطة الكرود المنتشرة على الضفاف ، وذالك قبل البدء باستعمال المضخات الآلية.

أن الكرادة الأولى الواقعة في منطقة الصليخ لم تشتهر طويلا بهذ الاسم ، الذي صار يطلق فقط على من لا يسكن أحدى الكرادتين ، مريم والشرقية.

ولكل من الكرادتين تاريخ مستقل ، وخصائص محلية متميزة رغم وقوعها متقابلتين على ضفاف نهر دجلة . ويترتب على ذلك ضرورة تخصيص كل منهما بدراسة مستقلة وهذا البحث الذي نقدمه لقراء مجلة بغداد قصور على كرادة مريم . وأرجو أن أوفق في وقت لاحق إلى تخصيص شقيقتها الشرقية بدراسة مماثلة .

تمتد كرادة مريم على طول شاطئ دجلة الغربي بين موقع جسر الأحرار الحالي شمالا حتى نهر الخر جنوبا . أما عرضها فمن شاطئ النهر حتى سكة حديد بغداد __البصرة . وكانت تحدها سابقا (سدة المسعودي) وهذه السدة بنيت في العهد العثماني الأخير لحماية بغداد الغربية من فيضان نهر الفرات . وقد زالت من الوجود أخر بقايا هذه السدة منذ حوالي العشرين عاما.

ومن هذا نعلم أن كرادة مريم تتبوأ منبسطا فسيحا من الطرف الجنوبي الغربي لمدينة بغداد . على أن الجزء الأعظم من هذه المساحة كان أما بورا متروكا وأما أرضا مزروعة . أما المنطقة السكنية فكانت تحاذي النهر محصورة في شريط من الأرض لا يزيد عرضه على الكيلو متر الواحد . والبيوت الكرادية تبنى عادة بالرهص __ الطوب__ وتسقف بجذوع النخل . وفي زمن متأخر بنى الموسرون منهم باللبن وسقفوا بالخشب .

وتبنى الدور متلاصقة بحيث تشكل سطوحها مجموعات يكمل بعضها بعضا. ومن طريف ما كان يقع أنهم إذا طاردوا لصا ربما أستطاع أن يعبر الطرف من أوله إلى أخره فوق سطوح المنازل ! ومع ذلك فالكرادة قلما يفلت اللص من أيديهم !. تتألف كرادة مريم من أحياء متميزة عن بعضها يطلق على كل منها اسم (طرف) ومن أشهرها طرف (الثعالبة) ويقع اليوم إلى الشمال من جسر الجمهورية ، و (العباسية) وفيها اليوم بناية المجلس الوطني الجديد ، والمطيرية __ بتسكين الميم __ و (الكاورية) وكانت متنزها صيفيا لأهل بغداد وقد تردد ذكرها في الأغاني البغدادية القديمة . وهذا الطرف المشهور بكثافة بساتينه وبشاطئه الرملي الذي يؤلف بلاجا طبيعيا يصلح للرياضة والسباحة.. وينقسم الطرف الواحد إلى دروب وشوارع غير منتظمة تعرف باسم (واجهات) جمع (واجهة) وهي تقابل الاصطلاح البغدادي (عكود) جمع عكد .

الحياة الاقتصادية :

كانت الحرفة الرئيسية لأهل الكرادة هي الزراعة . وكـان معظم المزارعين يملكون الأراضي التي يزرعونها . ولم تكن الأربـاح المتأتية من الزراعة تمكن المزارع من توسيع رقعة الأرض التي يزرعها ، ولذلك حافظة الملكيات الزراعية على حجمها الصغير .ومن نتائج هذا الوضع أن الكرادة لم تشهد أي نوع من التمييز الحاد بين السكان بسبب الفقر والغنى ، إذ لم يكن في المجتمع الكرادي كله غني بالمعنى الصحيح .

أن المالك قد يتولى زراعة أرضه بنفسه . وقد يدفعها إلى فلاح ليزرعها مناصفة وهذه هي المزارعة __ النظام المعروف قديما . ومن شروط عقد المزارعة أن يقدم الفلاح العمل والبذور ، والماء على صاحب الأرض . ويأخذ كل منها نصف المحصول ، يضاف إلى ذلك حصة العقر بنسبة ١٠|١ من حصة الفلاح يأخذها المالك .

والفلاح قد يؤاجر نفسه للعمل مع المزارعين بموجب عقد سنوي يبدأ بأيلول وينتهي بأيلول من السنة التالية . والأجر مقطوع مقداره ثلاثة آلاف قرش تركي . يتسلم الفلاح منه ألف قرش كدفعة أولى قبل المشروع بالعمل . ويعطى له الباقي على دفعات حسب الطلب ويستعين الفلاح في مزاولة عمله بمساعد يطلق عليه أسم (فضال) وقد يكون الفضال امرأته أو بنته .

وأشتغل بعض الكرادة بالزوارق __ الأبلام __ التي كانت تتولى النقل بين ضفتي دجلة . وعندما ظهرت الزوارق البخارية واستخدمت للنقل عبر المسافات الطويلة ، عمل فيها جماعة منهم . وكانت منطقة عملهم على ظهور هذه الزوارق تنحصر بين سيد سلطان علي والزاوية في الكرادة الشرقية .

وأمتهن آخرون صيد السمك . وهـؤلاء هم (الثعالبة) الذين يسكنون الطرف المسمى باسمهم . وفي مواسم الفيضان حين كان الهور الواقع خلف سدة المسعودي يمتلئ بمياه نهر الفرات يحصل أهل الكرادة على عمل يدر عليهم رزقاً لا بأس به ، ذالك هو صيد السمك (أبو سيف) أو السويفي . وهذا النوع من السمك يكثر في هور المسعودي ولم يكن يباع ، لكثرته ، بل كانو يقلونه لاستخلاص دهنه . ويجمع هذا الدهن في صفائح ويباع لأهل السفن لاستعماله في طلاء سفنهم حماية لها من التأكل .

ومن الاعمال الرئيسية لأهل الكرادة بيع الفجل . وكانوا يسمونه (أبو خوصة الذهب) دلالة على الربح الوفير الذي يتحصل من بيعه . والخوصة مفردة الخوص وتتخذ عادة الشد باقة الفجل . وكانو يبيعونه على أهل بغداد في الكرخ والرصافة .

وثمة مهن لم يكن في كرادة مريم من يمتهنها . كالخياطة __ الرجالية __ والحلاقة . وقد كان الرجال يذهبون إلى بغداد لخياطة ملابسهم . أما الحلاق فكان يأتيهم من بغداد ، وكان متجولا يحمل (عليجة) وهي كيس من القاش السميك ، يضع فيها ادواته المؤلفة من موسى وماكنة قص الشعر . وأعتاد الحلاق أن يقعد زبونه على حافة أحدى السواقي او على شاطئ النهر ويبلل رأسه بالماء ، ثم يحلقه دون استعمال الصابون . وكان

تتألف كرادة مريم من أحياء متميزة عن بعضها يطلق على كل منها اسم (طرف) ومن أشهرها طرف (الثعالبة) ويقع اليوم إلى الشمال من جسر الجمهورية , و (العباسية) وفيها اليوم بناية المجلس الوطني الجديد , والمطيرية _ بتسكين الميم _ و (الكاورية) وكانت متنزها صيفيا لأهل بغداد وقد تردد ذكرها في الأغاني البغدادية القديمة . وهذا الطرف المشهور بكثافة بساتينه وبشاطئه الرملي الذي يؤلف بلاجا طبيعيا يصلح للرياضة والسباحة..

الحلاق يلتزم المنطقة بحيث لا ينافسه أحد . أما أجرته فتدفع له على شكل محاصيل زراعية في نهاية كل موسم . ونادرا ما كان يقبض أجرته نقودا.

وليس في الكرادة حوانيت ولا عطارون بل كانوا يذهبون إلى أسواق الشواكة وعلاوي الحلة لشراء ما يحتاجونه . وثمة مواد كان أهل الكرادة يحصلون عليها مجانا وكانت عندهم في حكم المشاع . وهذه هي : التمر والدبس واللبن والتكي والمخضرات والفجل والنبق والحطب . وهم يبيعون هذه الأصناف للبغادة ولا يتبايعون بها في منطقتهم . وكانوا ينكرون على احدهم أن يشتريها من السوق ويعد المزارعون ذلك اهانة لهم . وقد جرت العادة أن يذهب رب الأسرة إلى المزارع ويقول له: (عندي اليوم لحم) يقصد انه يريد طبخ المرق لأهله، وعند ذلك يعمد صاحب الزرع إلى حقله فيجني له ما يسد حاجته من المخضرات . ولقد مارست هذه الظاهرة تأثيرها على أبناء الجيل الجديد في المحلة فكانوا ـــ إلى زمن قريب ـــ يتحرجون من شراء ثلاثة من هذه الأصناف المشاعة وهي التمر والتكي والنبق ويعتبرون الحصول عليها بطريق الشراء أمرا غير طبيعي.

الحياة الاجتماعية :

يرتبط معظم سكان كرادة مريم بالقرابة أو بالمصاهرة. وكان التماسك بينهم قويا والتعاون سنة متبعة. ولذلك امتازت حياتهم اليومية بالنشاط والحركة الدؤوب . وهم بتضافرهم قلما احتاجوا إلى غيرهم . وأكثر ما تبرز هذه الروح عند وقوع الحوادث والنكبات كالمرض والموت والحريق وسطوة اللصوص. ففي حالات كهذه ما على المنكوب الا أن يطلق صيحة عالية ـــ وهذه المهمة تقوم بها نساؤهم خير قيام ـــ حتى يزحف الطرف بأسره نحو مصدر الصوت ، وفي الحال : أن كان حريق اطفأوه ، أو لص طاردوه ، أو ميت تجمعوا حوله فقاموا بكل ما يجب نحوه ونحو أسرته ، وأن كان عراك حالوا دون الفريقين وأصلحوا بينهم .

كان حجاب المرأة الكرادية ـــ ضمن منطقتها ـــ أخف قيودا من حجاب أختها البغدادية . وهي في المزرعة تعمل مع الفلاح كما هي الحال في الريف . وبالاختلاط مسموح به في نطاق معين . وكان الرجل يمشي مع المرأة من بنات محلته في الأماكن العامة دون أن يثير منظرهما تساؤلا أو ريبة ما دامت (النية صافية) على حد تعبيرهم .

من عاداتهم في الزواج أقامة الأعراس على طريقة البغادة . أما تكاليف الزواج فبسيطة. أن أقصى حد للمهر هو ثلاثة آلاف قرش . والقرش يعادل (٢،٥) فلسين ونصفا . وجهاز العروس يتألف من فراش وصندوق للملابس مع بدلة العرس . وقد يضاف أليها البساط ـــ نوع من السجاد المنسوج في مدن العراق الأوسط ـــ وأغلب ما يكون صندوق الملابس من النوع المعروف بالمرفع . وقد يشتري العريس سريرا للنوم مما يصنع من سعف النخيل ، وقد لا يستطيع ذلك فينام على الأرض . ولكن بعض الموسرين منهم كانوا يحتفظون في بيوتهم بدستة من الفرش يخصصونها للإعارة . وتنظم من هذه وتنظم من الأثني عشر فراشا فوق بعضها وتغطى بشرشف . ويرقد العروسان فوق هذه الفرشة طوال الأسبوع الأول من زواجهما ثم تعاد الفرش إلى أهلها .

اللباس اليومي للكرادي دشداشة من الخام الأسمر الغليظ . والعرقجين للراس ، فلا يجوز للرجل أن يخرج من بيته حاسر الرأس . أما قدماه فحافيتان على الأغلب ، ولباس القدم الوحيد هو اليمنى الأحمر المعروف . وفي المناسبات يلبس الكرادي المقتدر زبونا من الصوف وعباءة (دك المشهد) أي عمل النجف مع العقال واليشماغ . و الزي الرئيسي للفلاح هو (البشت) ويحاك من الصوف الأحمر المغزول باليد . ولم أتكمن من معرفة السبب الذي من أجله يحتقر الكراديون هذا اللباس البغدادي .

وكان لكل من المرأة البكر والمتزوجة غطاء رأس تعرف به فالعذراء تلف رأسها بـ(الجتاية) وهي عصابة بيضاء ذات كراكيش . أما المتزوجة فتتلفع بالجرغد والفوطة التي تغطي رأسها ونحرها وصدرها معا . ولا تلزم الفتاة بلبس الفوطة ما لم تتزوج . ويفهم من ذلك أنهم كانوا يتشددون في حجب المتزوجة . ويبدو أن هذا التمييز في لباس الرأس قد تطور فيما بعد فصار محظورا على العذراء أن تلبس الفوطة لأن ذلك يعني أنها تريد التشبه بالمتزوجات .

الأطعمة التي يكثر الكرادة من تناولها عي كالآتي مصنعة على الوجبات اليومية : في الفطور :

العصيدة : وهي حساء يعمل من الطحين المسهى ـــ أي المحمص بالدهن ـــ والنمت المطبوخ . وقد يأكلون التمر والخبز واللبن . وقليلا ما يتناولون مشتقات الحليب كالزبدة والقشطة والجبن .

في الغداء:

تمر وخبز ولبن .

في العشاء :

البالوته : وتعمل من الطحين المحمص والدبس . وقد يتناولون الرز . وقد يأكلون الباذنجان المشوي بالتنور مع الخبز والملح . وثمة طبخة من الباذنجان أو الباميا مع الماء وعصير الرمان الحامض لا يدخل اللحم في تركيبها تسمى (مصكعة) والتسمية تعبير عن بؤس الطبخة ودلالتها على خشونة العيش . وطبخة يأكلها القادرون منهم تدعى • سنكسير) أو (حامض حلو) تعمل من المشمش المجفف والدبس واللحم . وتقدم مع التمن .

في الولائم : مرق حامض الشلغم مع التمن .

ومن أكلاتهم : الخميعة ـــ بتسكين الخاء ـــ ومادتها الحليب والسكر والدهن المغلي . واللبنية ـــ بكسر اللام وتسكين الياء ـــ وهي لحم وتمن ولبن وتطبخ سوية .

لم يعرف أهل كرادة مريم ألا القليل من المشروبات كاللبن والقهوة . وكانوا حتى أوائل القرن الحالي يجهلون الشاي . ويحكى ان هنديا في جيش الاحتلال الانكليزي في الحرب العالمية الأولى أهدى فلاحا من أهل الكرادة كيس شاي فقدمه الكرادي بوره إلى بقرته ظنا منه أنه نوع من العلف . ويذكر بهذه المناسبات أن قطعات من جيش الاحتلال هذا قد نزلت في الكرادة . ونشات بسبب ذلك صداقات وطيدة بين الأفراد الهنود في هذا الجيش وبين أهلها . حتى أن الكثير منهم تعلم اللغة الهندية . في حين كان الجمود والقطيعة يسودان علاقاتهم بالأفراد المغربيين في الجيش المذكور . ولا غراب في ذلك ، فالمضطهدون مهما اختلفت جنسياتهم يميلون بفطرتهم إلى التجانس ، والائتلاف مع بعضهم.

لهجة أهل الكرادة :

يتكلم اهل كرادة مريم بلهجة خاصة تختلف مع بعض الوجوه عن لهجة أهل بغداد. ومن خصائصها أنها بسيطة وخالية من التفخيم الذي يميز اللهجة البغدادية . ويمتاز كلام الكرادي بطغيان حركة الكسر على مفرداته بدل الضم الذي يكثر في كلام البغادة . وهناك مفردات شائعة في قاموس اللهجة الكرادية لا يستعملها أهل بغداد ، ومفردات أخرى يتفاوت اللفظ بها بين اللهجتين أما في الحركات وأما في الحروف وفيما يلي قائمة ببعض هذه المفردات ، نوردها للمقارنة :

الكرادة	بغداد
يدحج:	يباوع : بمعنى ينظر . وقول أهل الكرادة مقلوب من (يدحق)
باكلا:	ـــ باقلاء
يكتل:	يبسط : للضرب والصفع الذي يقع بين المتخاصمين
جدام :	كدام : قدام
كنتور:	قنطور : دولاب الملابس
طاسة :	كاسة
بخصم:	بقصم
جرك (بكسر الأول):	جُرك (بالضم)
يُعرف:	يُعرف
يَشتغل :	يُشتغل (واللام مفخمة) وغاليا ما يُكسر الكرادة عين الفعل الذي يضمه البغادة .

تترد على ألسنة أهل كرادة مريم أمثال دارجة أكثرها من المثال البغدادية مع تحريف بسيط في بعضها . وهذه نماذج منها :

ـــ الجوة أبطة عنزة يبغج عند البغادة : يصرخ

ـــ الخير لبو خضير والزبل على الخانجي

ـــ لو ردت تهجج أكنس وعجج

ـــ أبو سراج جوه أنجانته خبز ما ينام الليل

ـــ مفل بزونة حسين الطعمة جووها وما عاودت ـــ مثل أهل قازة وبازة : يضرب لجماعة يختلفون على قضية وليس فيهم من هو أكثر خبرة بها من صاحبه .

ـــ يابو بشت بيش بلشت : يخاطب به الفقير

ـــ والبشت هو لباس الفلاح الفقير كما أسلفت ـــ إذا دخل في صراع مع من هو أقوى منه . ويضرب لكافة الحالات المماثلة .

ـــ مثل تعلولة علي الراضي : وهذا المثل كرادي صرف . وأصله أن فجالا يدعى علي الراضي كان يبيع الفجل في الكرخ . وكان يتأخر هناك إلى الليل ، ثم يعود إلى منزله في وقت متأخر . وبعد أن يتناول عشاءه ويؤدي الصلاة وينجز ما لديه من أعمال في بيته يخرج إلى التعلولة . والتعلولة هي السمر وكانت لها أهمية خاصة عندهم بالنظر لخلو المحلة من المقاهي والمنتديات وحين يصل البيت الذي ينوي قضاء تعلولته فيه يكون المتسامرون قد أوشكوا على الانصراف . وربما طرق الباب وأهل الدار يهمون بالنوم ! فذهبت تعلولته مثلا .

وقد تردد ذكر الكرادة في الأمثال والكنايات البغدادية . ويلاحظ أن البغادة كثيرا ما كانوا يتهكمون من أهل الكرادة . ويستند هذا التصرف إلى اعتقاد البغدادي أن الكرادي غير متحضر وأن درجته في سلم التطور الاجتماعي أدنى من درجته . وليس لأهل بغداد يد في هذا الاعتقاد فهو من نتائج الشعور بالتفوق الذي يلازم أهل المدن ويغرس في أذانهم مثل هذه الأفكار والغرور . يعير أهل بغداد أهل الكرادة بالباذنجان فيقولون (كرادي أبو بيتنجانة) ويردد صبيانهم أهزوجة بهذا المعنى يقولون فيها :

كرادي كرادي أبو بيتنجانة
خلي الجلب نايم ومشنتر اذانة

ولا يعرف أحد بالضبط أصل هذه الشتيمة التي يطعن بها البغداديون جيرانهم الكرادة . سوى أننا نعرف أن أهل الكرادة كانوا يكثرون من زراعة الباذنجان ألا أنهم لا يستهلكونه بكثرة لاضطرارهم إلى بيعه . وهم لا يأكلون منه ألا ما يدر عليهم بيعه ربحا وهو الباذنجان الكبير الحجم يشوونه بالتنور أو يطبخونه مرقا . وفي هذه العادة ما يدل على الشح والفقر معا .. وأهل بغداد يزعمون أن الباذنجانة تعادل عند الكرادي دم الإنسان ! وهذا بلا شك من المزاعم الباطلة . .

ومن الأمثال البغدادية قولهم (كرادة وعزا حسين) يضربونه للجماعة تحرص على الشيء وتثير الضوضاء من حوله . والكرادة معروفون بحرصهم على أقامة التعازي في مناسبة عاشوراء . وفي هذه المناسبة كانت تعد الولائم الكبرى ، حيث يجد فقراء الكرادة وهم الأكثرية بغيتهم فيتهافتون عليها بحماس شديد . وآخر يقولون فيه (بل المعظم على الكرادة) وفي أصل المثل ومعناه أقوال متناقضة . وقد أورد جانبا منها الشيخ جلال الحنفي في كتابه القيم عن الأمثال البغدادية ، (راجع حرف التاء من الجزء الأول).

كسلة مريم :

يقترن أسم كرادة مريم بالكسلة المشهورة التي كان يؤجج أوارها أهل بغداد. وقد فاتنا أن نشير إلى ضريح يقع في وسط الناحية وينسب إلى السيدة مريم بنت عمران والدة المسيح ومنه استمدت كرادة مريم اسمها . والمرجح ان هذا القبر يعود لامرأة صالحة من نساء العهد العثماني أسمها مريم . وقد التبس الأمر على الناس فشاع بينهم أنها السيدة العذراء ، والعذراء لم تأت إلى العراق ولا عهد لها بالكرادة.

كان أهل الكرادة يقدسون ضريح مريم تبعا لهذا الظن. واتخذوا من الأرض التابعة له مقبرة لأكبادهم . أما أهل بغداد فكان هذا المشهد متنزها لهم يجتمعون حوله في كل عام مرتين : في الجمعة الأولى بعد عيد الفطر والجمعة الأولى بعد عيد الأضحى ، وهذه هي الكسلة .. والكسلة في بغداد ثلاثة أيام ، فإلى جانب كسلة مريم كانت كسلة سيد إدريس في الكرادة الشرقية ويحتفل بها في الحد الأول بعد العيدين . وكسلة أبو رابعة في الأربعاء الأول بعد العيدين وكانت تتوهج حول ضريح (أبو رابعة) في العظمية .

عندما يحين موعد الكسلة في كرادة مريم كان الناس يأخذون ـــ منذ الصباح الباكر ـــ بالزحف نحو ضريح السيدة من كل جهة من جهات بغداد حتى تضيق بهم البساتين والحقول المحيطة بالضريح . ويأتي مع الناس ، الباعة المتجولون بأنماط شتى من الأطعمة والمرطبات واللعب . ومع هواة الطرب ألوان مما عرفت بغداد في ذلك الوقت من أدوات اللهو والغناء . ويكون يوما مشهودا يفوق في صخبه ومسراته أيام العيد ويطبع في الأذهان ذكريات لا تنسى .

أما أصل الكسلة فمجهول ، وكذلك المعنى الذي ينطوي عليه . وأغلب الظن أنها وجدت بدافع الرغبة في مداومة المرح والتعطل الذي يستروحه الناس طوال أيام العيد . وفي مجتمع ضيق يخنقه الحرمان ، كالذي زاملته بغداد في الجيل الماضي تفرض مثل هذه النزعات تأثيرها القوي على الأفراد . أن حاجة الناس إلى التفسح والخروج من أسر القيود التي تكبلهم تؤلف على الدوام حافزا يدفع بهم نحو البحث عن منافذ يتنفسون من خلالها . وهكذا كانت لأيام العيد في بغداد ، بما تحمله للناس من مسرات ، أهميتها البالغة وأصداؤها البعيدة في النفوس . وكانت الكسلات مناسبة فرعها البغداديون من أعيادهم تطمينا لهذه النزعة . ولعل في أطلاقهم أسم (الكسلة) على هذه الأيام ما يؤيد هذا الظن أو يقربه من الصواب .

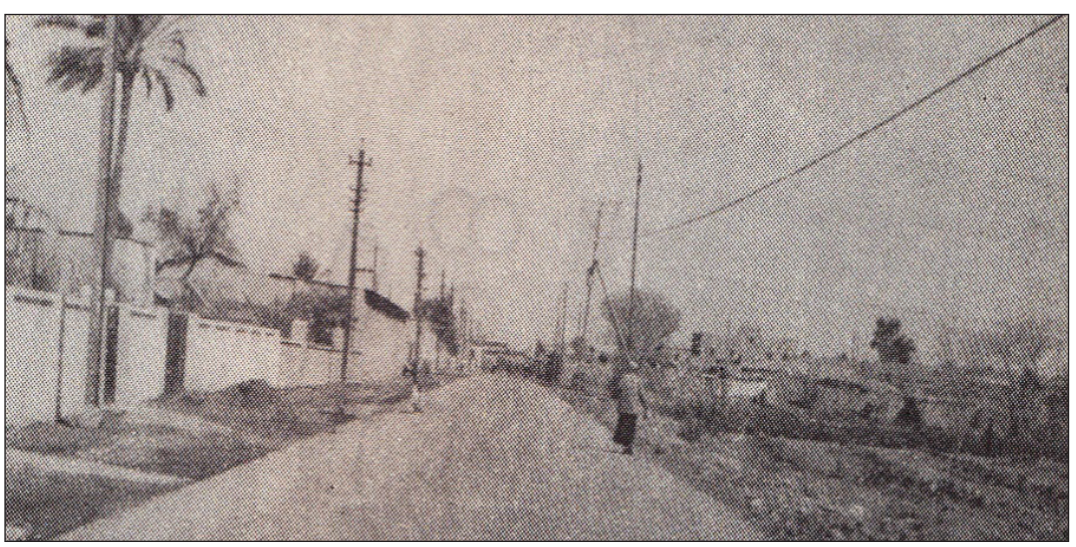

مجلة بغداد . تشرين الاول 1964

مكتبات بغداد في العصر الحديث

عبد الحميد الرشودي

على الرغم من أن بغداد لا تستطيع أن تفخر بالوقت الحاضر بنوادر الكنوز الفكرية التي طالما تألقت في حجرات مكتباتها ومعاهدها العلمية, ترفد العالم – كل العالم – بالنور والسداد والحكمة , وتزيل سجف الظلام بالكلمة البصيرة والحرف المضيء كما كان شأنها سابقا الا أننا نستطيع أن نجزم بأن أثمن المخطوطات العربية المبثوثة في مكتبات الشرق والمغرب تمت إلى بغداد بسبب أو نسب أو صلة. وليس معنى ذلك أن العراق خال الآن من مخطوطات ذات بال تهم الباحثين في مختلف أقسام المعرفة فلا تزال في مكتباتنا العامة والخاصة من الكتب النادرة ما يتيسر لها أن تكون ثروة مكتبية يمكن الاعتداد بها، وهي بقايا قاومت عوامل الدمار والموت طوال دهور, واستطاعت أن تخلص ألينا بعد أن شهدت كوارث مروعة, وانتكاسات مفجعة, ونجت من تلف واقع في مسيرة مرهقة عبر زمن شديد.

من أطراف ما يتسنى لي روايته بهذا الصدد أنني وقفت وأنا أعد هذا التقرير على ما يعتقد أنه مخطوطة المسودة الأصلية لكتاب مفردات القرآن للراغب الاصبهاني في المكتبة القادرية ببغداد، وقد كتب على جلده الأيسر بضعة أسطر هذا نصها «لقد انتشلت هذا الكتاب من نهر دجلة بعد أن رماه التتر لعنهم الله وذلك سنة ٦٥٦ من هجرة الرسول صلى الهه عليه وسلم وأنا الفقير أليه تعالى عبد الله بن محمد بن عبد القادر المكي».

أن تلك الأسطر التي كتبت بخط واهن ضعيف تلخص مأساة الكتاب العربي في العراق مدة سبعة قرون ، ذلك عدا السفن التي أوقرت كتبا وغادرت وطننا في مفتتح هذا القرن إلى حيث استقرت حمولتها في مختلف مكتبات العالم كما يروي الأستاذ طه الراوي في كتاب « بغداد» ، بغداد التي اتخذت الكتاب وسيلة تقربها زلفى من الله فبذلته للصادر والوارد في المسجد ، وتربه مواتية تفلق حبة الحياة لتنمو وتتفتح وتزدهر فيسرته لكل طلاب المعرفة في مدارسها وجامعاتها ، وزينة دونها غيره من زخرف الحياة الدنيا فباهت به في أنديتها ومحافلها ومجالسها .

وقد أطنب المؤرخون في ذكر كثرة الكتب في بغداد حتى ليخيل أن كلامهم شيئا من المبالغة والتزيد وهو الحقيقة الواقعة بقرينة الحقيقة الراهنة ، فالعراق يقرأ الآن ما يقرب من نصف عدد النسخ التي تنتجها المطبعة العربية من كتب ومجلات ، وهو رقم لا يمكن إهمال ثقله في ميزان الثقافة العربية المعاصرة . ومن هنا أخذنا نجد تظافر الجهود الحكومية والأهلية لإنشاء المكتبات العامة التي تسير الثقافة والعرفان لكل من يطلبها من المواطنين وهم كثر وهي مكتبات حديثة النشأة ، غضة العمر فإذا كانت قوائم كتبها لا تؤشر على الرقم الضخم الذي يرضي غرور « بغداد « العلمي في أطراد نموها وسرعة أتساعها وتدفق حيويتها ما يبشر بثروة مكتبية لامعة ، ويهيئ السبب لربط التليد الخالد بالحاضر الزاهر . ومهما يكن فهذه بعض المعلومات التقطها عن مكتبات بغداد المعاصرة وسبق أن نشرت قسما منها في صحيفة مؤتمر اللغة العربية الذي أنعقد في بغداد قبل عدة أشهر وأكثرها مما لم يسبق نشره.

مكتبة الأوقاف العامة

تقع المكتبة في محلة الفضل، شارع الكفاح.

تأسست سنة ١٩٢٨م – ١٢٤٧هـ في عهد وزير الأوقاف يومئذ الشيخ احمد الداود .

كان موضعها في البناية المشيدة على مسجد الخزرجي الكائن في رأس القرية .

ثم أنشئت لها بناية خاصة في باب المعظم ، وقد أنشد الرصافي في حفلة افتتاحها قصيدة رائعة جاء فيها قوله : للمسلمين على نزورة وفرهم ، كنز يفيض غنى من الأوقاف .

وقد هدمت تلك البناية لتوسيع الشارع ونقلت الكتبة منها إلى بنايتها الحالية .

وكانت كتبها قد جمعت من :

خزانة مدرسة نائلة خاتون (وتسمى بالمدرسة المرادية) : تقع قبالة الحيدرخانة كانت مسكنا لمراد أفندي مكتوبجي ولاية بغداد فلما توفي ، وقفته زوجته نائلة خاتون واتخذته مدرسة سنة ١٢٩١هـ وحسبت عليها كثيرا من البساتين والعقار ورتبت فيها مدرسا وإماما ومؤذنا وخدما وأجرت لهم الجرايات .

خزانة جامع الكهيا : أسسه كامل بك بن الحاج أمين الزند سمة ١٣٢٠هـ وقد كتبت وقفيته عام ١٣٢١هـ .

خزانة التكية الخالدية : وهي المعروفة بجامع الأحسائي في شارع المستنصر ويطل على دجلة ، كان مجمعا للزهاد ولما أقام فيه الشيخ خالد النقشبندي بعد عودته من البلاد الهندية سمة ١٢٢١هـ عمره والي بغداد فسمي باسمه . فيه قبر الشيخ محمد بن احمد الاحسائي الحنفي صاحب التأليف الكثيرة .

خزانة المدرسة السليمانية : تقع قرب دار الحكومة أنشئها الأمير أبو سعيد سليمان باشا والي بغداد سنة ١٢١٧.

خزانة المدرسة المرجانية: أنشأ المدرسة المذكورة أمين الدين مرجان وهي الآن جامع يقع على شارع الرشيد ، وأمين الدين هذا من موالي السلطان اويس بن الشيخ حسن الأيلخاني أحد أمراء التتار وكتب الخزانة المرجانية كلها من موقوفات العلامة الشيخ نعمان خير الدين الألوسي ١٢٥٢- ١٣١٧هـ .

خزانة جامع الحيدرخانة : يقع على شارع الرشيد في المنطقة المسماة حاليا باسمه بناه الوزير داود باشا والي بغداد وقد فرغ من عمارته سنة ١٢٤٢هـ

خزانة جامع الباجه جي : بناه التاجر الحاج أمين الباجه جي سنة ١٢٣٠هـ ويقع في محلة رأس القرية (محلة نهر المعلى قديما) .

خزانة جامع الرواس : يقع في رأس الساقية قرب محلة الشيخ عبد القادر الكيلاني (باب الشيخ) فيه قبر الرواس وهو على ما يقال رجل متصوف من أهل القرن الثاني عشر الهجري .

خزانة جامع الأمام الأعظم : هو الأمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي صاحب المذهب (١٥٠هـ) وكان رحمه الله قد دفن في مقبرة الخيزران ، وفي سنة السلطان ملكشاه السلجوقي مشهدا وقبة على قبره وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية .. وبعد وفته اتخذت تلك المدرسة مسجدا تقام فيه الجمع والأعياد وسائر الجماعات وقد توالت عليه العمارة يقع في العظمية في نهاية الشارع المسمى باسمه .

وقد أضيفت أليها بين ١٩٥١-١٩٦١ الخزانات الآتية :

خزانة جامع المصرف : بناه أحمد أفندي المصرف أحد مأموري الحكومة أيام الوالي داود باشا بالقرب من محلة الميدان .

خزانة جامع القبلانية : جامع قديم جدد عمارته قبلان مصطفى باشا والي بغداد (١٠٨٨-١٠٩٢هـ) ، كما جدد عمارته سنة ١٢٠٥ والي بغداد سليمان باشا الكبير، وفي هذا الجامع بعض القبور منها قبر الأمام أبو الحسين أحمد القدوري الفقيه الحنفي المشهور المتوفى سنة ٤٢٨هـ.

خزانة جامع الأصفية : يقع على دجلة قرب جسر المأمون ويعتقد أنه كان دار القرآن الملحقة بالمدرسة المستنصرية ، ثم أتخذ تكية للمولوية وبعدها عمره داود باشا مسجدا جامعا ، فيه بعض القبور وقد اختلفت حول أصحابها .

خزانة السيد محمد سعيد الطبقجلي : أبن أحمد أفندي ولد سنة ١٢٠٣ وتوفي سنة ١٢٦٥ ودفن في مقبرة باب الازج .

خزانة الشيخ عبد الحليم الحافاتي : الشيخ عبد الحليم عماد الدين الحافاتي أو الحافي ينتسب إلى الشيخ بشر الحافي الفقيه المتصوف المشهور ، أشغل وظائف التدريس والقضاء في كثير من مناطق العراق كانت وفاته سنة ١٩٤٣-١٣٦٢هـ .

خزانة السيد علي جيدر الباجه جي : المذكور شقيق السيد حمدي الباجه جي من رؤساء الوزارة السابقين توفي صاحب الخزانة سنة ١٩٥١ .

يبلغ كتب المكتبة حوالي ١٥٠٠٠ مجلد وأغلبها من المخطوطات أو المطبوعات النادرة .

المراجع :

تهذيب مساجد بغداد للآلوسي

الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف للمرحوم الدكتور أسعد طلس .

المستدرك على الكشاف لعبد الله الجبوري.

مقال في مجلة الأقلام التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد العراقية لعبد الله الجبوري أيضا .

مكتبة الخـلاني العـامة

تأسست هذه المكتبة سنة ١٩٤٥، ومؤسسها هو السيد صالح الجبوري .

وقد آزره بعض أصدقائه على تأسيسها ، فقد تبرع بعضهم بالمال والآخر بالكتب وكان هو نفسه قد نقل قسما من كتب مكتبته الخاصة لتكون نواة للمكتبة .

وممن أعانه على تأسيس المكتبة ، فخري جواد الساعاتي وأخوه ناجي وحسام الدين الهادي وعلي حسين الساعاتي ، وصالح عباس الصراف وغيرهم .

وضعت الكتب في غرفة صغيرة من غرف جامع الخلاني وأخذت تنمو حتى بلغت عدد مجلداتها الآن ٢٢ ألف مجلد في العربية والإنكليزية أو بعض اللغات الأخرى.

صنفت الكتب العربية على طريقة ديوي العشرية بتصرف يناسب الكتب العربية .

وللكتب العربية ثلاثة فهارس ، للمواضيع ، للمؤلفين ، دليل الكتب .

تحتل المكتبة في الوقت الحاضر بهوين كبيرين من جامع الخلاني على شارع الجمهورية أتخذ احدهما خزانة للكتب والآخر للمطالعة ، وقد ضاقا بمحتويات المكتبة ، ويفكر القائمون على شؤونها بإنشاء طابق ثان في بهو المطالعة لتلافي أتساع المكتبة المطرد ومما يجدر ذكره أن البناية أنشئت من تبرعات المطالعين .

مارست المكتبة بعض الفعاليات الثقافية فقد أقامت في عام ١٩٥٥ معرضا للكتاب

العراقي عرضت فيه كافة المطبوعات التي طبعت في العراق منذ مائة سنة حتى تاريخ المعرض ، وقد عرضت فيه الأعداد الأولى من جميع المجلات والجرائد العراقية ، وقامت المكتبة بطبع كراس أثناء أقامة المعرض فيه آراء بعض المفكرين عن أسباب تأخر حركة الترجمة والتأليف والنشر في العراق .

تتناول كتب المكتبة كافة المواضيع تقريبا وفيها مجموعة طيبة من كتب الدين والفلسفة والآداب والتاريخ والقانون إضافة إلى كتب العلوم البحتة والجرائد والمجلات .

وفي المكتبة حوالي ٣٢٠ مخططا قسم منها على شكل مجاميع . ومن مخطوطاتها المهمة كتاب في تفسير القرآن الكريم للكواشي مخطوط قبل سنة ٦٥٨هـ وكتاب شرح مائة كلمة للأمام علي لميثم بن ميثم البحراني ، وكتاب الصراط المستقيم للبياضي .

تعتمد المكتبة في توسعها على إهداء المؤلفين والناشرين ، ومن المعاهد والمؤسسات التي تهدي كتبها إلى المكتبة موضوعة البحث .

ـــ معهد الدراسات العربية العالي التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة .

ـــ المجمع العلمي العربي في دمشق .

ـــ وزارة الثقافة والإرشاد العراقية .

ـــ المجمع العلمي العراقي .

ـــ جامعة طهران .

المكتبة أهلية يديرها السيد صالح الحيدري .

ـــ كان القصد من إنشائها علاوة على الأغراض الثقافية والعلمية أعادة منزلة الجوامع الإسلامية إلى ما كانت عليه في القديم مصدر أشعاع وعلم وثقافة .

مكتبة الحاج حمدي الأعظمي العامة

تتصف مكتبة الحاج حمدي الأعظمي العامة بما تتصف به مكتبات كبار الفقهاء الخاصة في العصر الحديث ، فعلى الرغم من أنها تكاد تخلو من المخطوطات ذات الأهمية الكبيرة الأ أنها غنية بنتاج المطبعة العربية نوعا ما وكما ، وأصدق حديث عن هذه المكتبة هو محتوى الوقفية الخاصة بها ، وإليك نصها :

بســـم الله الرحمن الرحيم

أن قاضي محكمة شرعية بغداد السنية سجل ما هو آت : بناء على تحقق العذر الشرعي ، الواقع ذهبت بعد الدوام الرسمي إلى دار السيد الحاج حمدي عبد الله بن محمد عبد الله الأعظمي ، لما كان أحب شيء عندي هي الكتب وجمعها للاستفادة منها فقد صرفت أكثر أموالي في اقتنائها وشرائها حتى جمعت منها ما يزيد على الستة آلاف مجلد من تفسير وحديث وفقه وأصولها ، وعقائد وتاريخ ، مواعظ وغير ذلك ، وكنت قد خصصت لها مكانا في داري ، ولكن وددت وأحببت أن يستفيد منها أبناء وطني أن تستمر هذه الاستفادة ولما كنت أعلم وأعتقد أن الدنيا فانية وكل شيء فيها .. فأن الأعمال الصالحة التي يرجو فيها المسلم وجه الله ولقد قال سبحانه وتعالى « لن تنالوا حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شيء فأن الله به عليم « .

وقال نبينا الأكرم صلى الله عليه وعلى اله وصحبه وسلم « إذا مات الإنسان أنقطع عمله الأ من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له « . فأني أشهد على نفسي بأن قطعة الأرض المملوكة لي بالشراء الشرعي الواقعة في محلة السفينة تحت تسلسل ٢|١٧٩ المحدودة : الشمال الشرقي الطريق العام ، والشمال الغربي الحديقة تسلسل ١|١٧٩ ، الجنوب الغربي الحديقتان ٤|١٧٩ و٥|١٧٩ ، الجنوب الشرقي ٣|١٧٩ العائدات لأصحاب الملك وقد أنشأت عليها مكتبة تحتوي على غرفة خزانة الكتب ، وغرفتين للمطالعة أحداهما للرجال والثانية للنساء ، وغرفة قبول للاستراحة ، وغرفة المحافظ وذلك لحفظ الكتب التي كانت ملكا لي ، وقد نقلت الكتب المذكورة إلى الخزانة التي أنشأت في المكتبة والنسخة الأخرى ستبقى بيد من يكون متوليا ، وأنشأت من جهة تلك المكتبة أربعة دكاكين وحبست تلك المكتبة وجميع الكتب والدكاكين وأخرجتها من ملكي ووقفتها وقفا صحيحا على أن تستغل الدكاكين لمصالح المكتبة من محافظة وإنارة وإسالة ماء ، ويستفاد من الكتب بالمطالعة والقراءة واشترطت على أن لا تخرج الكتب من المكتبة بل تنحصر الاستفادة منها بالقراءة والمطالعة فيها من قبل الزائرين والمطالعين وخلال الدوام الذي يقرره وتحدده المكتبة ولهم أن يستنسخوا ما يشاؤن منها ، وعند خروج المطالع من المكتبة عليه أن يعيد الكتاب إلى الخزانة للحفظ ، وعلى المحافظ للكتب أن يتعهدها بالحفظ والعناية فأن كان فيها ما يقتضي أصلاحه أن يراجع المتولي لاتخاذ التدابير اللازمة لإصلاحها ، وقد اشترطت أن يكون مدفني في السرداب المخصص لذلك راجيا من الورثة ومن بيده الأمر من ذلك . وممن يزور المكتبة للمطالعة والاستفادة أن يحافظ على الكتب وأن يتحف الواقف المدفون هناك بالدعاء والسلام عليه السلام الشرعي ، واشترطت أن تكون التولية لي مدة حياتي وبعد مماتي تكون التولية إلى الاصلح الارشد من ذريتي ،وأن يبقى شيء من الغلة ويحتفظ به لتزويد المكتبة بالكتب المفيدة فإذا بقي شيء أيضا يصرف على المحتاجين من الذرية ، وقد نصبت الحاج هاشم الشيخ محمود الاعظمي متوليا للتسجيل ، وقد تأيد ملكية المكتبة والدكاكين المنشأة على جبهتها للواقف الحاج حمدي بن عبد الله بم محمد عبد الله الاعظمي بالسند المرقم جلد ٣١١ سجل ٣٦ والمؤرخ مارت ١٩٢٨ ولما تم أمر الوقف ولزم محتويا على هذه الشروط سلم الواقف المكتبة والدكاكين والكتب إلى متولي التسجيل الحاج هاشم الشيخ محمود الاعظمي فتسلمها منه وتصرف فيها برهة من الزمن كغيره من المتولين ، ثم أن الواقف طلب إرجاع المكتبة والدكاكين إلى ملكه محتجا بعدم اللزوم على قول الأمام الأعظم وترافعا لدي وأنا قاضي محكمة شرعية بغداد السنية فرأيت جانب الوقف أولى وأخرى فحكمت بصحة هذا الوقف ولزومه في خصومه وعمومه حكما جاريا على نمط الشرائط والضوابط تحريرا في ١٥-٤-١٩٦٢.

مكتبة الآثار العـامة

تأسست سنة ١٩٧٣ في غرفة صغيرة في مديرية الآثار العامة وكان فيها حوالي ٨٠٠٠ كتاب ، أما الأن فيبلغ المجموع الكلي لمحتويات المكتبة ٥٠ الف مجلد ، منها حوالي ٤٠٠٠ مخطوط .

ويمكن تصنيف تلك المجلات إلى ما يأتي :

الكتب .

المجلات .

الجرائد .

المخطوطات .

أما أهم اللغات التي كتبت فيها تلك الكتب فهي : العربية ،التركية ، السريانية ، الصينية ، اليابانية ، الأردنية ، الهندية ، الأرمنية ، الأندنوسية ، الكردية ،الروسية ، الهنكارية ، الأنكليزية ، الألمانية ، الفرنسية ، الأسبانية ، الأيطالية ،البولونية ، اللاتينية ، الهولندية ،الرومانية ، الجيكوسلوفاكية ، اليوغسلافية ،الدانماركية ، السويدية ، النرويجية ، اليونانية ، ولغات متفرقة أخرى .

تهدي إلى المكتبة بين الحين وآخر مكتبات خاصة ، وأهم المكتبات التي اهديها إليها هي

ـــ مكتبة المرحوم ناجي الأصيل .

ـــ مكتبة المرحوم سليمان الفضي .

ـــ مكتبة المرحوم الأب أنستاس ماري الكرملي .

ـــ مكتبة المرحوم رشيد عالي الكيلاني .

ـــ وأخيرا قدمت مؤسسة كلبنكيان إلى المكتبة مجموعة من الكتب .

أن كل كتاب يدخل المكتبة يسجل في سجلاتها كما ان لكل من هذه الكتب بطاقات مختلفة تيسر للمطالعين الرجوع اليها فهي على ثلاثة انواع ، بطاقات للمؤلفين ، للعناوين وللمواظيع .

ستستمر المكتبة على أعداد قوائمها الشهرية التي كانت تصدر مطبوعة بالرونيو وهي تحتوي على اسماء الكتب والمجلات التي تدخل المكتبة ويتم توزيعها على شعب واقسام مديرية الآثار العامة وبقية المؤسسات ، إذ أنها توقفت منذ مدة من الزمن بسبب انتقال المكتبة من بنايتها القديمة في شارع المأمون إلى بنايتها الجديدة في الصالحية .

ساهمت المكتبة في اقامت معرض الكتب والمخطوطات والآلات الموسيقية العربية ، فعرضت بعض مخطوطاتها وكتبها الباحثة في فن الموسيقى العربية ، واستقبلت الوفود التي حضرت المؤتمر بالإضافة إلى زوارها الآخرين .

وصلت إلى المكتبة مجموعة من الات المايكروفلم و الآت القراءة وسيؤسس قسم التصوير في بنايتها لتصوير الجرائد القديمة والكتب النادرة والمخطوطات الأثرية ، وليلبي طلبات الباحثين والكتاب لتصوير ما يحتاجون إليه من مطبوعات نادرة ومخطوطات .

ومما تجدر الأشارة إليه أن بعض الكتب المطبوعة في المكتبة نادرة ولاسيما كتب الرحلات .

وبالإضافة إلى إهداء المكتبات الخاصة إلى مكتبة الآثار التي أشرنا اليها سابقا فأن المكتبة تحصل على الكتب عن طريق :

ـــ المبادلة بمجلة سومر ومطبوعات الآثار الأخرى .

ـــ الشراء من مختلف مكتبات أوربا وأمريكا .ـــ هدايا المؤلفين والناشرين .

صنفت المكتبة على طريقة ديوي العشرية مع تصرف بسيط فيما يخص الكتب العربية .

تمتلك المكتبة مجموعة ثمينة من الكتب النادرة ومخطوطاتها في : الأدب ، أصول الفقه ، الأدعية والأذكار ، الأسطر لاب ، الألعاب ، البلاغة ، البهائية ،البيطرة ، التاريخ ، التتن ، التراجم والسير ، التربية والتعليم ، التصوف ، تفسير القرآن الكريم ، التنجيم ، الجغرافية ، الأخلاق ، الجنسية ، الجواهر الحديث الحسبة ، الحشيش ، الحيوان ، الدروز ، الدين ، الردود المجالات ، الرياضيات ، الزراعة ، النات ، الزيارات للسحر ، السيرة النبوية ، الشطرنج ، الشعر ، الشيعة ، الصبابة ، الصرف ، النحو ، الصلاة ، الطب ، العروض ، العقائد ، علوم القرآن ، الفرائض ، الفراسة ، الفرامين ، القسوة ، الفرق ، الفقه ، الفلسفة ، الفلك ، الفهارس ، القرآن الكريم ، قصص الأنبياء ، القصص والحكايات ، القهوة ، الكتاب المقدس ، الكلام ، الكيمياء ، اللغة ، المجاميع ، المصطلحات ، المعاجم ، الملل ، والنحل ، المناقب ، النطق ، المواعظ والحكم ، الموسوعات ، الموسيقى والغناء ، النصرانية ، الوثاق اليزيدية .

عرف الأستاذ كوركيس عواد بأهم تلك المخطوطات في أعداد مجلة سومر التي تصدرها مديرية الآثار العامة . هذه المعلومات عن حديث للمحرر مع الأنسة ساجدة العزي مديرة المكتبة وعن اطلاع المحرر على فهارس المخطوطات .

مكـتبة الجـوادين العـــامة

تقع هذه المكتبة على أرض في الركن الجنوب الشرقي من الصحن الكاظمي لصق جامع الأمام ابي يوسف كان البكتاشية قد اتخذوا منها تكية في العهد العثماني حسب رغبة بابا حسين سنة ١٢٩٨هـ وبنايتها جميلة ولاسيما بهو المكتبة حيث يجد الداخل اليها محرابا لطيفا كتبت على جوانبه آية النور ، بينما تأنق الخطاط ما شاء له فنه أن يتأنق في كتابة سورة الدهر على الدائرة الداخلية للقبة يتوسطها من الأعلى زخرف أسلامي بألوان زاهية . وقد شغلت الداليات الفراغ الكائن بين أساطين البهو . وتقع إلى خلفها حجرات أتخذها الأمام الحجة هبة الدين الحسيني الشهرستاني مجلسا عاما . وكانت التكية قد هجرت بعد الحرب العالمية الأولى فنقل أليها السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني كتبه ثم جعلها مكتبة عامة سنة ١٣٦٠هـ ليعم الانتفاع بها وأخذت تنمو منذ ذلك الوقت .

حتى بلغ عدد كتبها أكثر من خمسة آلاف مجلد غير كتب السيد هبة الدين الخاصة والتي هي الأخرى في متناول المطالعين وفيها أكثر من مائتي مخطوط .

كما ترد المكتبة مطبوعات متعددة من جميع انحاء العالم كمصر وايران والولايات المتحدة والهند والباكستان . وينفق عليها من مال الحجة هبة الدين ويديرها نجله السيد جواد .

نسبة المطالعين فيها تبلغ حوالي ٣٠ شخصا يوميا ولا تعطى كتبها على سبيل الاستعارة الخارجية .

ولها فرسان الأول خاص بكتب السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني حسب حروف الهجاء والثاني عام للكتب الباقية .

وفيها كتب بمختلف اللغات منها العربية والفارسية والإنكليزية والهندية .

المكتبة القادرية

تأسست هذه المكتبة في أوائل القرن السادس الهجري مع المدرسة والجامع بعد أن عهد الشيخ أبو سعيد المخرمي إلى تلميذه الشيخ عبد القادر الكيلاني بالتدريس فيها . وقد نكبت المكتبة عدة مرات على يد التتر والفرس ، وآتى عليها الغرق الذي أصاب بغداد سنة ١٢٤٦هـ أيام الوالي داود باشا .

والمكتبة الحالية حديثة النشـأة لأنها افتتحت في اليوم الخامس والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩٥٤م.

ذلك أن العلامة الكبير السيد عبد الرحمن النقيب (من رؤساء الوزراء السابقين توفي سنة ١٣٤٥هـ) كان قد جمع من ماله الخاص اكثر من ١٥٠٠ مجلد مخطوط و٣٠٠٠ مجلد مطبوع ، اضافة إلى الكتب المخطوطة الموقوفة من قبل سلفه السيد سلمان النقيب ثم عمد إلى وقفها على الحضرة الكيلانية غير أن تسجيلها لم يتم بصورة رسمية كما كان يقصده ، وبعد وفاته اجتمع أولاده فأقروا رغبته وأوقفوا تلك المكتبة في المحكمة الشرعية ببغداد بصورة رسمية وبقيت محفوظة في داره إلى أن تولى سماحة السيد إبراهيم سيف الدين الكيلاني نقابة الأشراف وتولى السيدان يوسف الكيلاني وبرهان الدين الكيلاني الأوقاف القدرية فنفذوا رغبة النقيب السيد عبد الرحمن .

فقد ألفت لجنة لتنظيم المكتبة من الأساتذة كوركيس عواد والمرحوم إبراهيم الدروبي وعامر عبد الودود ومحمد المالو لإدارة المكتبة بعد أن قام الأستاذ كوركيس عواد بتدريبه على ذلك .

وافتتحت رسميا للجمهور يوم ٢٥-٦-١٩٥٤ في حفل خطب فيها الأستاذان الشيخ كمال الدين الطائي وإبراهيم الدروبي وكان الحفل تحت رعاية وزير المعارف يومذاك الدكتور عبد الحميد كاظم .

يبلغ عدد كتب المكتبة إلى يوم كتابه هذا التقرير خمسة عشر ألف مجلد منها ١٣٧٠٠ مطبوع و١٣٠٠ مخطوط .

وفي المكتبة مخطوطات نادرة منها مجموعة من المصاحف الشريفة والكتب القيمة .

أما أشهر الخطاطين والمؤلفين الذين يمكن رؤية خطوطهم في هذه المكتبة فهم :

أبن الأصيل ، أبن السقاء ، أبن المؤدب ، قاسم بن احمد ، أبن الملطي ، أبن الخاكي ، الشيخ صالح البصري ، السيد محمود أفندي الآلوسي ، الشيخ عيسى البندنيجي ، السيد محمد أمين الواعظ ، الشيخ عبد السلام ، الشيخ عبد القادر الأدهمي ، الشيخ محمد القصة خون ، ريمان ، والخطاط الكشميري عبد الله خان .

للمكتبة ثلاثة فهارس ، الأول للمؤلفين والثاني للعناوين والثالث للمواضيع .

وتقع في أربع حجرات متداخلة على الطابق الثاني من حجرات الحضرة الكيلانية بمحلة باب الشيخ (باب الأزج سابقا) .

وتحت الإنشاء الآن بناية حديثة للمكتبة رصد لها مبلغ ٥٥٠٠ دينار وهي ازاء موقع المكتبة الحالي .

والمكتبة على اتصال بدور النشر الحديثة لتزويد المكتبة بأحدث ما تخرجه المطبعة وينفق على المكتبة من الأوقاف القادرية .

وسائل التسلية الشعبية في بغداد

جميل الجبوري

كثيرة هي وسائل التسلية التي يتشاغل الناس بها, من أجل قطع الوقت وانشغال النفس بما يخفف عنها عناء الحياة ومتاعب الأعمال. وكان يصل إلى بغداد بين فترة وأخرى بعض متعاطي الألعاب السحرية, فيتعاطون أعمالهم هذه في المقاهي والطرقات, فيجتمع الناس عليهم ليشهدوا حركاتهم السحرية وتصرفاتهم الغريبة المدهشة, لقاء شيء يسير من النقد يدفعونه في مقابلة ذلك.. فكانت الناس تتحدث بهذا, فمن تسامع به ذهب إلى حيث يلعب الساحر ألعابه فيجد في ذلك تسلية لنفسه وتسرية عن همـه. ومن وسائل التسلية عندهم الألعاب البهلوانية التي تؤدي حسب نظم وتقاليد معينة, في محلات معدة لذلك يقال لها « الزورخانات» فيجتمع البهلوانية للقيام بحركاتهم الجسمية البطولية, ويحضر اجتماعاتهم هذه عدد من الناس للتفرج. وأحيانا يأتي إلى بغداد بعض بهلوانية العجم وغيرهم , فيطلب إلى بهلوانية بغداد منازلته ومصارعته فإذا اتفقوا على ذلك أعلنوا على الناس وقت المصارعة ومحلها فيجتمع خلق كبير لمشاهدة هذا الصراع واجدين في ذلك تسلية طيبة يقضون بها الوقت الطويل.

ومن وسائل التسلية الحديثة اجتماع الناس لمشاهدة مباريات كرة القدم وغيرها وكان من وسائل التسلية عندهم كذلك اجتماعهم على مشاهدة سباقات الخيل في ساحات مخصصة لهذا الغرض .. وقد أزيلت هذه من بغداد قريبا لما كان يصاحبها من المقامرات وتعريض الناس للخسائر المادية الكبيرة.

أما ألعاب الرجال فأن منها ما يجري في ليالي شهر رمضان من نحو لعبة المحيبس والصينية ، ويتسلى الرجال ببعض وسائل اللهو يلعبونها في المقاهي والأندية من نحو الطاولي الذي يلعبونه بطرائق متعددة و الدومنة والدامة والشطرنج والمنقلة ، فمنهم من يباشر اللعب ومنهم من يتطلع على اللاعبين.

وقضاء الرجال والشباب لكثير من الوقت في المقاهي من ابسط وسائل التسلية والالتقاء بالمعارف والأصدقاء. وغالبا ما يمكث جلساء المقاهي الساعات الطوال في المقهى إذ يتخذونها أماكن دائمية للتخلص من أوقات الفراغ المملة سواء أكان ذلك ليلا أم كان نهارا، ومما يتعاطاه أناس من وسائل التسلية مناقرة الديكة الهراتية، حيث يهارشون بينها ويحارشون ويتخذون على ذلك المراهنات، فيدمى الديكان ، وربما تعرض أحدهما للموت أو فقئت عينه .. وتقه هذه المناقرة في الطرقات المكشوفة وأمام المقاهي والناس ينظرون إلى هذه المشاهد فيتحمسون لها يتسلون بها .. والقائمون بمثل هذه الأمور يعنون بتربية الديكة وتدريبها على المناقرة ، ويتعاطون كذلك بيعها لا لغرض الذبح والأكل أنما لغرض المناقرة إذ أن لهم أرباحا يربحونها وفخارا يفخرون به، وكانوا كذلك يناطحون الكباش على جعل يجعلونه ورهن يتفقون عليه ، فتتناطح الكباش والناس تتفرج عليها.

ومن وسائل التسلية عندهم اجتماعهم في المقاهي حول قصاص يقص عليهم بصوت جوهري، قصة «عنتر بن شداد» أو قصة « أبو زايد الهلالي» وغيرها من السير المشهورة .. ويجلس القصخون على كرسي مرتفع فيقرأ في كتاب السيرة قراءة مصحوبة بالشارات والإيماءات تصويرا للموقف الذي تتحدث عنه وقائع السيرة وشحذا لنفوس المستمعين لكي يشتد انتباههم إلى قراءة القاص .. فإذا تحقق ذلك سخوا عليه بالعطاء والمكافأة . وقد زالت هذه الوسيلة المعروفة عندهم بوجود الراديو والتلفزيون وشيوعهما حديثا في المقاهي وغيرها من الأماكن العامة.

واللعب بالطيور والعكوف على تربيتها والمباهاة بها ، من الهوايات المعروفة لدى فريق من الناس ، وهم يطيرون هذه الطيور في جو السماء استئناسا بمشهدها وهي تتجول في الجو وتستدير وتتقلب .. وكثيرا ما ترى أسرابا منها متعددة ، تطير هنا وهناك ، وكل سرب منها محتفظ بمجموعته لا يختلط بمجموعة أخرى ، ولا يند طير من طيوره عن بقية الجماعة .. وللناس في هذه المشاهد تسلية واستمتاع .. ومن وسائل لهوهم وتسليتهم السباحة في الشط ، وهي هواية يشترك فيها الرجال والشبان والأحداث . وهم يخرجون أيام الصيف إلى المقاهي والجراديغ التي تنصب على شواطئ الاماسي الحارة القائظة وتناول أكلات من السمك المسكوف .واجتماع الناس في المقاهي والجايخانات وقضاء الوقت الطويل فيها هو أيضا من ضروب التسلية وأزجاء الوقت..

ومن وسائل التسلية التي كان يولع بها فريق من الشباب ، خروجهم ليالي الصيف خاصة وتجولهم في الطرقات والازقة ، وهم يغنون بأعلى أصواتهم حيث الناس نيام على سطوح بيوتهم .. وقد أوشكت هذه الأنماط من التسلية أن تزول في الناس هذه .. والخروج إلى الشواطئ وركوب الابلام ونحوها من وسائل النقل النهرية ، يعد من خيرة وسائل التسلية الصيفية التي يرفهون بها عن نفوسهم .. وهناك طبقات من رجالهم وشبابهم كانوا يخرجون إلى البساتين المشهورة في بغداد فيجتمعون على الكأس والغناء ، ومن هاتيك البساتين بستان الخس والكاووية.

وفي الربيع كانت منطقة سلمان باك تزدحم بالجموع الزاحفة أليها من بغداد برجالهم ونسائهم وصبيانهم ، يقضون هناك عدة أيام في اللهو والطرب والمآكل والمشارب ، ولا تزال هذه الوسيلة من بين وسائل التسلية المعروفة حتى اليوم .

وكان اليهود يخرجون أيام السبت صباحا وعصرا إلى الطرقات والشوارع وشواطئ الأنهار يتجولون ويتنزهون ، إذ كان السبت من أيام العطل الرئيسية لديهم .. أما مجالس الجالغي التي كانت تقام في الليل ، فهي كذلك من أشهر وسائل التسلية واللهو يحضرها المغنون وهواة المقام وغيرهم.. ويقوم على السطوح مجاميع من سكان الحي من نساء وصبيان يشهدون ذلك ويستمعون المقامات والبستات .

وهناك مجموعة من القواعد الاجتماعية الشعبية تدخل عداد التسلية ، منها حفلات الطهور وزفة العرس والمواليد النبوية وحفلات الذكر، فأن الذين كانوا يحضرون هذه الحفلات أو يشهدونها ويخرجون من بيوتهم إلى مشاهدتها أنما كان يسوقهم إلى ذلك الرغبة في التسلية وقضاء الوقت .

ومن وسائل التسلية التي يغرم بها الشبان والصبيان ، استعمال المفرقعات من نحو البوتاز والطرقات والزنابير وشخاط رحلو وعين الشمس وغيرها من مواسم معينة وخاصة ليالي المحية التي تقع في شهر شعبان أحد الشهور القمرية . ومما يتشاغل به الصبيان من وسائل التسلية ما يسمى بالحزازير- جمع حزورة – وهي ألغاز يحفظونها فيمتحن كل منهم أصحابه بحلها..

وكان من أظهر وسائل التسلية الشعبية أن تخرج النساء بعد انتهاء العيد بضع جمعات إلى مناطق معينة في بغداد وضواحيها ، وهم يسمون ذلك بالكسلات فتكون لهم كسلة في جامع الأمام الأعظم وكسلة في حضرة الأمام الكاظم وأخرى في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني وأخرى في السيد إدريس بالكرادة الشرقية . ومن كسلاتهن أيضا كسلة في « رابعة بنت شيخ جميل» . وتأخذ النساء أطفالهن ومعهن السماورات والقدور والأفرشة ، ليقضوا نهارهن هناك حيث يطبخن الطبيخ ويصنعن الشاي ويأنسن بذلك الجو هن وأطفالهن ومن وسائل التسلية لدى النساء أن يخرجن كل خميس إلى مقابر البلد المعروفة كمقبرة الشيخ عمر السهر وردي ومقبرة باب المعظم ومقبرة الغزالي ومقبرة الشيخ معروف الكرخي فيقضين هناك شيئا من الوقت في الترحم على موتاهن وعقد الاجتماعات فيما بينهن .

ولكن الطابع لهذه الزيارات يغلب عليه ابتغاء التسلية والفرار من الحياة البيتية الدائمة المسئمة .وهناك أيام مخصصة لزيارات أضرحة الأئمة خلال السنة ، ومن ذلك أيام السبت التي اتخذوها لزيارة الكاظم .. واعتاد سكان المحلات القديمة اتخاذ مجالس لهم أمام بيوتهم وعلى قارعة الطريق ولاسيما النساء فأنهن يجتمعن على شكل مجموعات صغيرة أمام أبواب بيوتهن يقضين ما بعد العصر أو أوائل الليل بالحديث .. ولا يمنعهن من ذلك أن تكون الطرقات قذرة تمر منها مجاري المياه الوسخة ولا يهمهن أن تكون ضيقة أو واسعة .. وخروج أل البيت من النساء لزيارة أهل بيت آخرين من أصدقائهن أو ذوى قرباهن أمر مشهور وله عندهن تقاليد وأصول .. فأن هذه الزيارات كانت تقع مع بدء العصر.. ولكن الزائرات بعد شرب

الشاي وتناول الكعك وتكريز حب الركي يرجعن إلى بيوتهن لطبخ التمن الذي كان يطبخ بعد العصر إذ كانت وجبة العشاء تتناول أثر صلاة المغرب .. ثم حل نظام جديد في الزيارات النسائية أطلق عليه سم « القبول « وتجمع اللغظة على "قبولات" حيث تعين كل عائلة من العوائل يوما تستقبل فيه زوارها .. وكانت الأصول الشعبية القديمة لا تحول دون أن تقبل الزوار يوميا وبلا سابق موعد . ومن المهم الإشارة إلى أن وسائل التسلية الشعبية تنشط في أيام الأعياد لاسيما بالنسبة للصبيان حيث تستغل الساحات المكشوفة المتروكة في أحياء البلد فتقام فيها المراجيح ودواليب الهوا ، ليركبها الصبيان وصغار الصبايا فيقطعوا أيام العيد بأمثالها من وسائل التسلية التي تمتاز بترويض الجسم وتعويده على خفة الحركة .. ومن تلك الوسائل استخدام الحمير في العيد أيضا لركوب الأحداث استمتاعا بلذة الفروسية المصطنعة ، ولا يقع هذا الأ في الأعياد .. وهناك مآكل تباع للصبيان لا تخلو من بعض أساليب التسلية كالجقجقدر مثلا فأنه يبسط في وعاء مقطع إلى خانات يكون في كل خانة منها لون من ألوان الجقجقدر المصبوغ بالحمرة أو الصفرة والخضرة وغيرها .. وفي منتصف الوعاء عمود قصير تعلق عليه قيدة من الحديد مثقوبة من منتصفها وعلى أحد طرفيها خرزة مشدودة بخيط لتؤدي مهمة المؤشر .. فإذا جاء الصبي ليشتري من الجقجقدر لطعة فمن أجل أن لا يحتار في تخير النوع الذي يريد شراءه فأنه يفر القيدة حول محورها فإذا وقفت عند خانة من خانات الجقجقدر باعه البائع من النوع الذي فيها .. وأحيانا يفرها له البائع بنفسه .. وهناك عربات بسيطة مكشوفة تدفع باليد يستعملها الحمالون لنقل الأمتعة والأثقال في سائر أيام السنة ولكنهم يتخذونها في الأعياد وسيلة للتكسب عن طريق تسلية الأطفال والصبيان الصغار حيث يتكدس فيها العدد العديد منهم فيدفع الحمال العربة بهم من نقطة في الشارع إلى أخرى تبعد عنها دقائق قليلة .. وليس غرض الصبيان من هذه النقلة الأ التباهي بركوب العربة والاستئناس بالجو المرح الذي يكونون فيه وهم جلوس بملابسهم الزاهية على لوحتها الخشبية الجرداء يصفقون ويتضاحكون .. فإذا أوصلهم الحمال إلى النقطة الثانية من الشارع طلبوا العودة من حيث أتوا بأجور جديدة وقد ينزلون ليركب غيرهم أما الحدائق المتخذة لاجتماع الناس من نساء وأطفال وغيرهم فقد كان أول ما أتخذ منها في بغداد حديقة المجيدية التي أنشئها والي بغداد مدحت باشا سنة ١٢٨٦هـ فكانت هناك حديقة شعبية عامة وهي اليوم مستشفى وعلى جزء آخر منها أقيمت حديثا مدينة الطب التي لم يكمل بناؤها بعد .. وقبل سنوات يسيرة بدأت البلديات تتخذ في عدد من المحلات ساحات مكشوفة تجعلها حدائق مزودة بأدوات اللعب ليجتمع فيها الناس وتلعب الصبيان . وأشهر الحدائق العانة المعروفة لهذا الغرض حديقة بارك السعدون في محلة السعدون وحديقة النعمان في الأعظمية وحديقة المعرض في باب المعظم غير أن هذه شغلت بمرافق ومؤسسات أخرى خرجت بها عن كونها حديقة عامة.. وهناك عدة منتزهات حديثة أسست في أماكن متعددة من بغداد تخرج أليها الناس أماسي أيامهم منها حدائق السكك وحدائق القناة . ومن وسائل تسلية الصبيان الأحداث ما يقال له "صندوك الولايات" وهو خزانة فيها عدة صور ملتصق بعضها ببعض يعرضها صاحب الصندوق على المشاهدين من الصبيان بطريقته الخاصة لقاء أجور بسيطة زهيدة فيستمتع أولئك المشاهدون بالتطلع أليها ويغلب على هذه الصور أن تكون خاصة بملكات الجمال وبعض الأبطال والشخصيات التاريخية ومناظر الطبيعة وساحات الغزو والقتال وغير ذلك .. وإذا كانت الألعاب تعد من وسائل التسلية فأن لهم كثيرا من أنماطها وضروبها .. وقد ألفت كتب هذه النواحي منها « كتاب الألعاب الشعبية لصبيان العراق « تأليف عبد الستار القره غولي وكتاب الألعاب الشعبية لصبيان سامراء تأليف يونس السامرائي كتاب العاب صبيان العمارة تأليف عبد الحسن المفوعر وكتاب الألعاب البصرية وهذا لا يزال مخطوطا لدى مؤلفه.

وفي أوائل هذا الجيل كان معروفا في وسائل التسلية ما يقال له « قره قوز « وقد انقرضت هذه الحرفة المسلية التي كانت تقام في المقاهي فتحضرها الناس وتجد فيه متعة طيبة . وكان من وسائل تسليتهم حضورهم حفلات الرقص الذي كان العبيد يرقصونه في تكية لهم تقع في محلة الجوبة ببغداد وهو رقص يسمونه « هيوة العبيد» يقرعون فيه طبولا خاصة غير أن رقصهم هذا كان نمطا من أنماط الذكر إذ كانت تصاحبه ألفاظ تعبدية وتسبيحات .. ومن وقت بعيد زال رقص العبيد وزالت تكيتهم .. وعند ظهور الفنغرافات كان الإصغاء إلى الفنغراف من أشهر وسائل التسلية والترفيه عن النفس .. ثم ظهر الراديو فشغلت الناس به ولما عرف التلفزيون أخذ من أوقات الناس كثيرا فبات من أسباب التسلية المفضلة بالنسبة لكثير منهم .. وكان من وسائل تسلية الناس أقامة ما يسمى بالسركس وهو استخدام الحيوانات في الألعاب ومنها السباع والفيلة فتقبل الناس على مشاهدة ذلك بشغف كبير.. وهذه السركسات يقوم بها أناس من الأجانب تكون معهم الحيوانات المروضة حيث يحلون في البلد لمدد محدودة يتكسبون فيها من ريع مدخولات السركيس .. وأحيانا كانت تقام في بغداد مدينة للألعاب وسائل التسلية.وربما عددنا بعض أنواع المقامرات من وسائل التسلية الشعبية أكثر مما ذكرنا وفي ما مر يغني عما أغفلنا.

كلادس يوسف تتحدث عن مصطفى جواد وعفيفة اسكندر

فالح الدراجي

قبل ثلاثة وخمسين عاماً بالضبط، جاءت (المعلمَة) كلادس يوسف مع صديقتها الى الإذاعة، ولم يكن في بالها قط أن زيارتها هذه، ستجعلها واحدة من أهم المذيعات العراقيات.

كما لم يخطر ببالها إنها ستتخلى عن مهنة التعليم وتنتسب لأسرة الإذاعة والتلفزيون، إذ ما أن دخلت كلادس مع صديقتها دار الإذاعة حتى وجدت نفسها في إختبار المذيعات دون أن تدري، ومن أول جملة مكتوبة قرأتها بنجاح، وضعت توقيعها على (عريضة) العمل في الإذاعة، لتصبح بعد لحظات مذيعة (رسمياً)، وتأخذ راتباً إسبوعياً قدره خمسة دنانير(وهو راتب كبير آنذاك)!

هذه قصة دخول المذيعة القديرة، أو (الكروان) كما يسميها الجمهور العراقي كلادس يوسف الى الإذاعة العراقية، كما روتها لنا عبربرنامج (مو بعيدين) حيث تحدثت عن سنين حياتها المليئة بالجد والعمل والمثابرة، ولم تبخل مذيعتنا الكبيرة، فقد حكت لنا عن الإذاعة العراقية منذ أن دخلتها في أيلول عام ١٩٥٦ وأبرزالمذيعين فيها آنذاك، وأهم الشخصيات التي أعجبتها، كما تحدثت عن برامج الأعياد، وكيف كانت تأتي الى الإذاعة منذ خيوط الفجر الأولى لصبيحة العيد، لكي تشارك – وهي المسيحية – أخوتها المسلمين العراقيين فرحة العيد، ولتعمل أيضاً بدلاً عن زملائها المذيعين المسلمين، فتستفتح البث بتغريد (البلبل) الذي إعتاد على سماعه العراقيون من الإذاعة كل صباح، ثم الإنتقال الى المسجد لنقل صلاة العيد، بعد ذلك تواصل تقديم البرامج البهيجة الأخرى. كما تحدثت السيدة كلادس عن قصة هذا (البلبل) وكيف أصبح ماركة عراقية مسجلة إذ أن الإذاعة العراقية هي الإذاعة الوحيدة التي تبدأ بثها بصوت البلبل. ولعل من الملفت في حديث السيدة كلادس يوسف التي تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية منذ خمسة عشر عاماً، أن لها ذاكرة متقدة، فهي تتحدث عن تأريخ مرَّ عليه أكثرمن نصف قرن، وكأنه حدث أمس، بخاصة عندما تتحدث عن العلامة الخالد مصطفى جواد – صاحب البرنامج الشهير قل ولاتقل – فتستذكر بعضاً من سيرته اللغوية الباهرة، أو عن الفنان الكبير ناظم الغزالي، وأريحيته ولطفه، وكيف كان يحمل الحلويات في العيد، ليقدمها بيده – وهو النجم الكبير– الى العاملين في الإذاعة، أوعندما تتحدث عن الفنانة الجميلة والكريمة عفيفة إسكندر وكرمها الذي تضرب به الأمثال، وكيف كانت تمرعلى غرف الإذاعة واحدة واحدة، لتوزع العيديات على أفراد الشرطة والحراس والعمال، والمذيعين، وكذلك الموظفين، والموسيقيين، وأغلب العاملين في الإذاعة، وقصة (الچلو) الذ إشترته الفنانة عفيفة الى الفنان الراحل خزعل مهدي .. ثم أختتمت السيدة كلادس يوسف حديثها الممتع بمفارقة لطيفة عن ذلك المذيع الجديد، الذي أراد أن يقدَّم أغنية الفنان المصري محمد عبد المطلب – إسأل مرَّة عليَّ – فقدمها بإرتباك – إسأل مرَة عَلي – فأصبح نكتة المذيعين.

قراءة في مذكرات (الخاتونة) مس بيل عن العراق

القسم الثاني

عباس بغدادي
مؤرخ راحل

وكانت أعمال بيرسي كوكس في بغداد كثيرة. فإلى جانب تنظيم أعمال الاستخبارات كان . بوصفه رئيسا للضباط السياسيين . واسطة الاتصال بين قائد الجيش والسكان المدنيين، ومستشاره في اتصالاته السياسية بهم. وكان معظم وقته يصرف في مقابلة الوجهاء والشيوخ من شتى أنحاء العراق، مما اظهر الحاجة إلى مساعدة شخص خبير بتاريخ العشائر وأنسابها، عالم باتجاهاتها والعلاقات بينها. وكانت مس بيل خير من يستطيع القيام بها العمل. ولكن قائد القوات البريطانية، الجنرال مود، اعرب عن مخاوف كبيرة حينما علم أن امرأة . مهما كانت كفاءتها . آتية للانضمام إلى السكرتارية. كما انه خشي أن يتخذ قدومها سابقة بالنسبة لزوجات الضباط اللواتي قد يطالبن بالانتقال إلى بغداد أسوة بها، وهو أمر لم تكن السلطات البريطانية قد سمحت به بعد. ولكن السير بيرسي كوكس تمكن من إقناعه بعد أن أكد له بأنها قادرة على تقديم خدمات يعجز عنها إي عضو آخر في الإدارة السياسية.

وبعد احتلال بغداد بأسبوع واحد، كانت غيرترود بيل في طريقها إليها من البصرة على ظهر باخرة عسكرية بريطانية. وكانت رحلة نهرية بطيئة استغرقت تسعة أيام. وفي ١٥ نيسان (ابريل) وصلت بغداد، وكانت الدار التي خصصت لسكناها . على قولها . أشبه بعلبة خانقة، فقضت فيها ليلة، ثم خرجت تبحث عن غيرها، فعثرت في محلة السنك ، قرب مدرسة الدهانة في ذلك الوقت، علي بستان ورد فيه ثلاثة بيوت صيفية تعود لأحد أصدقائها القدماء، وهو موسي جلبي الباجه جي، فانتقلت إليها بعد خمسة أيام.

أصبحت مس بيل عنصرا مهما في هيئة موظفي السير بيرسي كوكس، وكانت . حسب تعبيرها . تقوم بوظيفة غربال لحشود الزوار والوفود وأصحاب الحاجات الذين يتدفقون على مقره يوميا طالبين مقابلته. وكانت تزود السير بيرسي مع كل زائر بورقة تبين له فيها القبيلة التي ينتمي إليها، والمنطقة التي يمثلها، وما تعرفه عن ماضيه وميوله، والغرض من المقابلة، مما كان يوفر عليه كثيرا من الوقت ويسهل له العمل.

وقد وجدت مس بيل علي اثر وصولها إلى بغداد أن هناك توترا شديدا في العلاقات بين الجنرال مود، قائد القوات البريطانية، والسير بيرسي كوكس، رئيس مستشاريه السياسيين. وكان مبعث هذا التوتر هو الاختلاف الصارخ بين عقليتيهما وشخصيتيهما.

كان الجنرال مود عسكريا ممتازا، همه الأول متابعة الحرب، ومواصلة انتصاراته لاستكمال فتح العراق صعدا إلى الشمال. وكان في اتصالاته بسكان أراضي العدو المحتلة . كما كانت توصف في ذلك الوقت . يتصرف تصرف الفاتح العسكري دون إعارة أي اهتمام للاعتبارات السياسية، أو مشاعر سكان البلاد.

والواقع أن البيان الذي أصدره الجنرال مود بتوقيعه حين دخوله بغداد، مؤكدا لسكانها أن البريطانيين دخلوا محررين لا فاتحين لم يكن من إنشائه، بل انه كان معارضا له بشدة، ولم ينشره إلا على مضض، وبناء على تعليمات من الحكومة البريطانية التي أبرقت إليه بنص البيان. وكان الذي دبجه هو السير مارك سايكس، احد طرفي معاهدة سايكس . بيكو سيئة الصيت.

اما السير بيرسي كوكس فكان سياسيا محنكا خبيرا في الشؤون العربية، عاش بين العرب سنوات طويلة بصفة مقيم بريطاني في الخليج. وكان بوصفه مسؤولا عن اتصالات القيادة العامة بسكان البلاد، معنيا بإنشاء إدارة مدنية تحل محل الإدارة العثمانية التي انسحب معظم موظفيها مع القوات التركية، وبموافاة الحكومة البريطانية بتقارير دورية ومنظمة عن الأحوال العامة في البلاد. ولكن الجنرال كان يميل إلى التسلط، ولا يبدي أي اهتمام لتعليمات الحكومة حول السياسة الواجب إتباعها ولا لآراء كوكس، بل كان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة بصورة مستمرة وغير ضرورية، بحجة الضرورات العسكرية. وفي عام ١٩١٧ كانت العلاقة بين الرجلين قد بلغت ذروتها من التوتر، وابرق السير بيرسي كوكس إلى لندن طالبا تعزيز مركزه، وتمكينه من القيام بواجبه بصورة صحيحة، أو إعفاؤه من منصبه.

وفي هذا النزاع بين القطبين العسكري والسياسي كان للمس بيل دور حاسم. فقد صادف أن قام السير رونالد ستورز، من كبار رجال المكتب العربي في القاهرة بزيارة إلى بغداد، فشرح له كوكس موقفه، وعرض مأخذه علي الجنرال مود، وأيدته في ذلك المس بيل تأييدا قويا. وبادرت مس بيل من جهة اخرى إلى كتابة رسالة مفصلة إلى السير آرثر هيرتزل، وكيل وزارة الهند، الذي كانت

المس بيل

لها به معرفة وثيقة، فاطلع عليها وزير الخارجية اللورد كرزن، وتمكن من حمل الحكومة البريطانية علي تأييد كوكس والاستجابة لطلباته.

ومع ذلك فلو علم السير بيرسي كوكس، وغيرترود بيل، بما كانت الأقدار تخفيه للجنرال مود، لما كلفا نفسيهما كل هذا العناء، بل اكتفيا بالانتظار بضعة أيام أخرى. ففي مساء ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) حضر الجنرال مود حفلة إقامتها مدرسة الاليانس اليهودية في بغداد لتكريمه، وهناك قدمت إليه القهوة كما قدمت إلى غيره. ولكنه طلب شيئا من الحليب ليضيفه علي القهوة، فجيء له بحليب ربما كان غير مغلي، وكان مرض الكوليرا منتشرا في بغداد في تلك الفترة، ويبدو أن الحليب الذي قدم له كان ملوثا بجراثيمه، فأصيب الجنرال بالكوليرا، ومات بعد أربعة أيام، وانتهت المشكلة بهذا الحل الجذري. وقيل في حينه أن جهة ما دست السم للجنرال مود في القهوة، والله اعلم. وقالت مس بيل في رسالة كتبتها على اثر وفاته: لم يختر احد للموت وقتا أفضل من الذي اختاره الجنرال مود.

مارك سايكس صاغ بيان تحرير بغداد ونشره الجنرال مود على مضض تطبيقاً لتعليمات الحكومة في لندن

ورغب الانكليز بعد احتلال بغداد في إصدار جريدة تنطق بلسانهم وتعبر عن سياستهم، فأطلقوا عليها . باقتراح من الأب انستاس الكرملي . اسم العرب، وصدر عددها الأول في ٤ تموز (يوليو) ١٩١٧، وقد عهد بادارة الجريدة ورئاسة تحريرها الي المستر جون فيلبي في بادئ الأمر، وكان يساعده الاب انستاس، ثم تولت مس بيل إدارة سياستها بعد ان تركها فيلبي، وكتبت في ذلك إلى والدها تقول: إنني ابدأ أعمالاً جديدة وطريفة، احدها رئاسة تحرير (العرب) وهي الجريدة المحلية التي نصدرها. وتملأ ذهني الخطط لجعلها أكثر حيوية بالحصول علي مراسلين في شتي المناطق، ومحرر للأخبار المحلية. وإنني واثقة بان القراء سيهتمون لسماع أن ابن فلان فرضت عليه غرامة لخروجه بدون فانوس بعد حلول الظلام، أكثر من اهتمامهم بالأخبار التي تفيد أن قرية مجهولة في الفلاندر قد قصفت.

ثم تشير إلى الأب انستاس فتقول: الأب انستاس، مساعد رئيس التحرير، يأتي أسبوعيا لقراءة المقالات الافتتاحية التي اقوم بمراقبتها. وهو عربي من لبنان، أشبه بشخصية خارجة على التو من احد مؤلفات شوسر، عظيم المعرفة بلغته، كما انه يتكلم الفرنسية ويكتبها وكأنه احد أبنائها.

ثم تقول: ولا يقلل من حبي له اقتناعي بأنه . على الرغم من ثيابه الكهنوتية. رجل خبيث.

وفي أيلول سنة ١٩١٧ التحق الكرنل ارنولد ويلسن (السير ارنولد ويلسن فيما بعد) بهيئة موظفي السير بيرسي كوكس، وأصبح نائباً له. وعلى الرغم من الاختلاف بين طبائع الرجلين والتباين في آرائهما، فمن الغريب أن التفاهم بينهما كان سائدا طيلة عمل الكرنل ويلسن مساعدا أو نائبا للسير بيرسي كوكس. اما علاقة ويلسن بالمس بيل فكانت مختلفة جدا.

وفي ربيع سنة ١٩١٨ استدعي السير بيرسي كوكس إلى لندن للمشاورة، وانتهى الأمر بإعارة خدماته ليكون وزيرا مفوضا في إيران، فأصبح الكرنل ويلسن وكيلا للحاكم المدني العام في العراق، وبقي علي رأس الادارة المدنية في العراق خلال سنتين حافلتين بالمشاكل والاضطرابات، وكان الرئيس المباشر للمس بيل طيلة هذه المدة.

كانت تقام في العراق، مع تقدم الجيش البريطاني فيه، إدارة مدنية جديدة، وكانت هذه الادارة تنظم على اساس اعتبار العراق منطقة من مناطق الهند، وكان الهدف النهائي هو ضم العراق إلى الهند ليصبح جزءا من الإمبراطورية البريطانية.

ولكن مع التغيير الذي طرأ على الجو الدولي بعد الهدنة، لم يعد ضم العراق الي الهند مقبولا دوليا، وكان على بريطانيا ان تبحث عن صيغ اخرى للابقاء على سيطرتها، ولذلك كان لابد من اعادة تخطيط السياسة البريطانية بحيث لا تقتصر على تحقيق أهداف بريطانية فقط، بل تطمئن في الوقت نفسه مطامح الرئيس الامريكي وود رو ويلسن التي عبّر عنها بمبدأ تقرير المصير وتكافؤ الفرص الاقتصادية لجميع الدول، ضمن بنوده الاربعة عشر. ولم يكن نظام الانتداب الذي ابتدع إلا محاولة للتوفيق بين مصالح الشركاء المتناحرين، على الرغم من أن تطبيق الانتداب عمليا كان سيضمن إعطاء الأولوية لأهداف بريطانية الإستراتيجية والتجارية.

وقد وجد كثير من البريطانيين صعوبة كبيرة في قبول هذا التغيير، وما ارتاحوا له، وخاصة السير آرنولد ويلسن الذين كان مطلق اليدين في ادارة البلاد بين سنتي ١٩١٨ . ١٩٢٠ ولا شك أن إصراره على تجاهل تطورات الوضع الدولي، والجو الجديد الذي ساد في لندن، أدى إلى نتائج وخيمة جدا وربما كانت الأضرار التي عادت بها سياسته على مصالح بريطانية اكبر مما عادت به علي العراق.

كان ويلسن استعماريا بنشأته وثقافته وآرائه السابقة. وكان من أولئك المؤمنين برسالة الرجل الأبيض وبأن من الواجبات التي ألقاها التاريخ على عاتق بريطانيا هو حمل مشعل المدنية بين شعوب الشرق المتأخرة، كما كتب

في ما بعد قائلا:
ان دور بريطانيا في رعاية بني الإنسان هو بث المبادئ المسيحية في حكمهم. لقد كان ايماننا بالعراق، مثل ايمان هربرت ادوارد بالهند، انه كان أمانة بيد الحكومة البريطانية، وانه بحاجة إلى ما هو أكثر من ميزات المدنية المادية. ان سياستنا يجب أن تكون اعداد العراق للحرية اولا، ومن ثم اطلاقه حرا. وكنا نؤمن بأن العراق لن يكون أهلا لممارسة الحرية قبل أن يختمر بمبادئ المسيحية .
إن إصرار ويلسون على ضرورة بقاء العراق تحت حكم دولة أجنبية إلى أن يصبح قادرا على حكم نفسه، فضلا عن تجاهله لرغبات سكان البلاد، ومبادئ تقرير المصير، كان أشبه بمنطق من يقول للطفل لا تدخل الماء حتى تتعلم السباحة.

القدرة على التكيف مع الظروف

اما مس بيل، فانها على الرغم من كونها على قدر كبير من الصلابة في آرائها ومواقفها، فان احد أسرار قوتها كان يمكن في قدرتها على التكيف مع الظروف المتغيرة.
ويبدو أن إقامتها الطويلة المتواصلة في بغداد قد جعلتها أكثر تفهما للأمور، وأحدثت تغييرا كبيرا في آرائها عن القومية العربية ومستقبل العراق السياسي. ولو قارنا بين كتاباتها المبكرة ومواقفها الأخيرة، لوجدنا التطور في آرائها واضحا. فهي حتى سنة ١٩١٩ كانت تعتقد أنه ليست هنالك في الشرق الأوسط عقائد وطنية، ولا روابط قومية. فقد كتبت مثلا في كتابها الصحراء والمعمورة الذي نشر في سنة ١٩٠٧ تقول إن الجمعيات التي تدعو إلى الوحدة العربية، ومنشوراتها الحماسية، لا قيمة لها مطلقا، لأنه ليست هنالك امة عربية.. فالتجار السوريون يفصلهم عن البدو برزخ أوسع من ذلك الذي يفصلهم عن العثمانيين. والبلاد السورية تقطنها أقوام تتكلم العربية، ولكن هم كل منها هو أن تمسك بخناق الأخرى.
ولما زارت الشرق للمرة الثانية بعد إعلان الدستور العثماني، وتولي حزب الاتحاد والترقي زمام الحكم في الدولة العثمانية، دونت ملاحظاتها في كتابها من مراد إلى مراد الذي صدر في سنة ١٩١١ فأشارت إلى مرورها بالموصل، ووصفت الاضطرابات التي حدثت فيها خلال الثورة التي جاءت بالاتحاديين إلى الحكم، قائلة إن الحكم العثماني هو أفضل حكم بالنسبة للطوائف المختلفة والمتناحرة في المنطقة.
وفي احدى رسائلها إلى ابيها في سنة ١٩١٨ كتبت تقول إن العراقيين يريدون الانكليز ولا يريدون غيرهم لأنهم يعلمون أننا سنحكم حسب عادات البلاد، ويدركون أن نصب أمير عربي أمر مستحيل.
وفي مؤتمر الصلح في باريس، حينما استدعيت مع الكرنل ويلسن إلى باريس لتقديم المشورة للوفد البريطاني إلى المؤتمر، نصحت الامير فيصل . الذي كان مندوبا عن الحجاز في المؤتمر . أن يتفق مع الفرنسيين بشأن سورية، وان يتقرب إليهم لان الاميركيين لا يمكنهم أن يعاونوهم والانكليز لا يريدون أن يتدخلوا في شؤون سورية.
ويروي رستم حيدر الذي كان المندوب الثاني للحجاز في المؤتمر بمعية فيصل، والذي حضر اجتماعاتها به، في مذكراته التي حققتها ونشرتها في سنة ١٩٨٩ انه استغرب قولها هذا، واستفسر من الدكتور احمد قدري الذي كان معهم: هل مس بيل يهودية؟ قال: لا، قلت إذن هي مشتراة من الفرنسيين، او انها عشقت احد ظرفائهم، وهي تميل إلى الاستعمار المطلق في الشرق. كما ان الكولونيل الذي يحكم في بغداد، مليكة الشرق، لا يريد للجنة كينغ . كراين ان تذهب لتري اعماله فيها، وهو لا يريد ان يجعل للاهالي صوتا مرتفعا بل يريدها كالاغنام، لان هذا لا يوافق افكاره الاستعمارية. ولنعلم ان الحزب الاستعماري المستبد الذي يتألف من امثال هؤلاء الملوك في المستعمرات، الصعاليك في بلادهم، هو حزب كبير لا يستهان بمطامعه يريد الاستبداد لأنه هو الحاكم. ومس بيل معاونته، لا ترى رأيا غير رأيه.
ويذكر رستم حيدر في مذكراته أيضا انه اجتمع مساء اليوم نفسه بلورنس ونقل له آراء غيرترود بيل، فقال له لورنس: ان مس بيل عقلها صغير، وليس لقولها اهمية تذكر، واما الكولونيل (ويلسن) فليس من رأيها تماما، على انه حاكم في بغداد، ويريد أن يحتفظ بموقعه.
ان ما ذكرناه من قدرة مس بيل على التكييف السيرع مع الظروف المتغيرة، جعلها تغير كثيرا من آ رائها بسرعة. وفي حين ان ويلسن بقي مصرا على عدم الاعتراف بأن الشعور الوطني في العراق قوة يجب أن يحسب حسابها، ويجب التعاون معها بدلا من محاولة كبتها، فان مس بيل ادركت في النهاية انه يجب، على الأقل، الاعتراف بحقيقة واحدة، وهي أن الناس يفضلون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، ولو بدون كفاءة، على ان يحكمهم غيرهم بكفاءة عالية.
وكتبت في احدي رسائلها من بغداد فيما بعد:
إن ما أتمنى أن يقوم به السير بيرسي كوكس هو أن يعطي مواطني هذا البلد مسؤولية واسعة، فهي الطريق الوحيدة لجعلهم يعرفون أية مهمة صعبة هي الحكم.
إننا إذ نشجع هذا الكائن الحي علي النمو، ونجس نبضاته في أيدينا، لا نستطيع أن نحول دون نموه وارتفاعه.
وفي رسالة كتبتها الى المستر بومان الذي كان مديرا للمعارف في العراق في عهد الاحتلال، ثم انتقل الى عمل مماثل في القدس، قارنت بين سياسة بريطانيا في فلسطين (بادارة هربرت صموئيل) وسياستها في العراق قائلة:
انني لن اقبل، ولو اعطيت الدنيا كلها، ان اعمل في تلك السكرتارية (تريد سكرتارية حكومة فلسطين) اذ ان مهمتنا في العراق مهما كانت عسيرة، فاننا على الأقل نسبح مع التيار الموجود، وهو التيار الوطني، والذي هو، علي أي حال، الحركة الوحيدة الظاهرة، في حين انكم (في فلسطين) كما يبدو لي، مضطرون الى السير في عكس التيار .
ولم تكن افكار غيرترود بيل حول ضرورة الاعتراف بواقع الشعور الوطني قاصرة علي العراق وحده، وانما كانت آراؤها في مستقبل فلسطين لا تقل عنها وضوحا، جاء في رسالة كتبتها من بغداد في مطلع سنة ١٩١٨ وبعد اعلان تصريح بلفور تقول:
.. وبالمناسبة، فانني اكره التصريح الصهيوني للمستر بلفور حول سورية (وهي تريد سورية بالمعني الجغرافي الذي كان يشمل سورية ولبنان وفلسطين) واؤمن بأنه لا يمكن تحقيقه... فالبلاد بصورة عامة لا تصلح للاهداف التي يفكر فيها اليهود. انها ارض فقيرة، غير قابلة لتنمية كبيرة، وثلثا سكانها على الاقل هم من العرب المسلمين الذين ينظرون الى اليهود باحتقار. وهو في رأيي مشروع مصطنع كليا، بعيد عن اية علاقة بالواقع، وانني اتمنى له الفشل الذي يستحقه، والذي سيناله فيما اتصور.
وفي مناسبة لاحقة كتبت إلى أبيها (في ١٠/١٠/١٩٢٠) تقول:
لننتقل الآن إلى منطقة أخرى من مناطق الانتداب: فلسطين. ان نفس المبادئ العامة يجب ان تنطبق عليها. ومع ذلك فان هربرت صموئيل خلال الشهرين الماضيين، أسس في فلسطين حكومة بريطانية ذات مستشارين عرب. وهو يفعل ذلك لأن تأسيس اي نوع من المنشآت الوطنية ذات الطابع المستقل سيؤدي الي رفض الصهيونية - ولكن اليس هذا شجبا كافيا للصيهونية؟ انني شخصيا اعتقد ذلك، وأؤمن انه في وقت ما، وربما بمساعدة مصر، ستنفض فلسطين عنها نير الصهيونية. وستكون الغلطة غلطتنا، لانه اذا كان هنالك درس اتاح لنا العراق فرصة تعلمه، فهو انك لا تستطيع ان تدافع عن امر، وتفعل غيره.
عملت غيرترود مع ويلسن بانسجام في البداية، ولما صدر التصريح البريطاني . الفرنسي حول مستقبل البلاد العربية، عارضه ويلسن بشدة وابرق الى الحكومة البـــريطانية قائلا:
ان تعيين امير (عربي) في الوقت الحاضر ليس عمليا، وامر غير مرغوب فيه. ولا اعلم فيما اذا كان مثل هذا التعيين يعد التزاما ضروريا بالنسبة الى التصريح الصادر في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ فاذا كان الامر كذلك فانني اتوقع ان يكون النهج الذي اختارته حكومة جلالته لهذا البلد شائكا.. .
ويقول ويلسن ان مس بيل طلبت اليه ان يبلغ وزير المستعمرات انها تتفق في الرأي مع ما جاء في هذه البرقية وجميع البرقيات التي ارسلت حتى ذلك الوقت حول هذا الموضوع.

قبر المس بيل

في سوريا

ولكن على الرغم من هذا الانسجام المبدئي بدأت بوادر الخلاف تظهر في رسائل مس بيل الى والديها.
وكانت قد مرت سنة كاملة تقريبا بين توقيع معاهدة فرساي وتوزيع الانتدابات في مؤتمر سان ريمو في نيسان (ابريل) ١٩٢٠، ولم تصدر عن المقيمية البريطانية خلال سنة ١٩١٩ اية تصريحات واضحة عن السياسة التي تعتزم بريطانيا انتهاجها في العراق. وظهرت بوادر عدم ارتياح شديد فيه بسبب استمرار الاحتلال العسكري من جهة، وقيام دولة عربية مستقلة في سورية، من جهة اخرى. اذ لم يرتح العراقيون حين رأوا ان السوريين اعتبروا قادرين علي حكم انفسهم، بينما كانوا هم . في نظر الحلفاء . غير اهل لذلك.
وفي اواخر سنة ١٩١٩ قامت مس بيل بزيارة الى سورية، وقابلت هناك عددا من العراقيين الذين يشغلون مناصب مهمة في حكومتها، ابرزهم ياسين الهاشمي. ويبدو انها تعرفت هناك للمرة الاولي علي نوع الحكومة التي يريدها العراقيون الذين يعملون مع فيصل في دمشق. وقدمت لدي عودتها تقريرا من اهم تقاريرها بعنوان سورية في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٩ غطي مقابلاتها ومباحثاتها خلال زيارتها. وقد ختمته بوصف الفوضي وسوء الادارة السائدين في سورية خلال حكم فيصل. ولكنها مع ذلك لم تشجب قيام حكم وطني قبل أوانه، بل بررت ذلك الوضع بأنه كان ضرورة تاريخية لا بد لبريطانيا من مواجهة مثله وقبوله في العراق ايضا وقالت: حينما نؤسس ادارة مدنية في هذه البلاد (أي في العراق) فان وجود حكومة وطنية في سورية منذ سنة أمر لن ينساه الوطنيون العراقيون .
وقد اعتبر ويلسن ان سكرتيرته الشرقية، بتقريرها هذا، الذي جاء خلافا لآرائه، قد خانته وخذلته.
وفي رسالة كتبتها مس بيل في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٢٠ اشارت الي الوضع في العراق، قائلة: وفيما عدا ذلك، فان الأمور ليست سهلة. اعتقد ان ويلسن يعالج الوضع بصورة ممتازة .
وهنا كانت مس بيل مخطئة. فالواقع ان ويلسن لم يكن ليعالج الوضع بصورة ممتازة. اذ حدثت في الرميثة بعد كتابة هذه الرسالة بمدة قصيرة، الواقعة التي كانت فاتحة ثورة عارمة انتشرت في سائر انحاء الفرات الاوسط والأسفل، ثم امتدت الى بغداد وغربها وشمالها حتى بعقوبة وشهربان وسامراء.
تلك هي ثورة العشرين، او الثورة العراقية التي اجبرت الحكومة البريطانية علي تغيير سياستها العراقية، والإقلاع نهائيا عن فكرة الحكم المباشر، وتطبيق سياسة الانتداب تحت قناع معاهدة بريطانية . عراقية.
ويبدو ان أحداث الثورة قد زادت في توتر أعصاب ويلسن وخشونته مع موظفيه وكل من يتصل به. فقد كتبت مس بيل في ٩ ايار (مايو) ١٩٢٠ تقول: ان تناول الغداء في المكتب امر مزعج نوعا ما. ويلسن يترأس اجتماعات الغداء، وهو كثيرا ما يكون غاضبا كالدب. ولذلك فان الطريقة الوحيدة هي اهماله وعدم التحدث اليه. وهـــو لا يرتاح الى ذلك أيضا. ولكن ما العمل؟ .
وحيـــنما منح ويلسن وسام فارس الامبراطورية الهندية (K.C.I.E) الذي اصبح بموجبه يحمل لقب سير، كتبت غيرترود في احدى وسائلها (في ٢٣ ايار/ مايو ١٩٢٠):
لقد منح ويلسن وسام (فارس الامبراطورية الهندية) وانني مسرورة جدا، فـــهو جدير به كل الجدارة. اعترف أنني اتمني انهم وقد منحوه رتبة فارس، لو استطاعوا ايضا ان يمنحوه شيئا من الصفات الخلقية التي تنسب الي الفرسان عادة .
واستمرت العلاقات بين مس بيل والسير آرنولد ويلسن بين مد وجزر، وفي تموز (يوليو) ١٩٢٠ بلغ الخلاف بينهما ذروته في فصل عاصف وصفته قائلة: كنا حتى الآن نقضي ضربا من (شهر العسل)، ثم حدث لسوء الحظ ان افضيت الى احد اصدقائنا العرب هنا بنتفة من المعلومات التي لم يكن (من حيث المبدأ) ينبغي اعطاؤها. وهي لم تكن ذات اهمية كبيرة، ولم يتبادر الي ذهني انني اخطأت حتي ذكرت الأمر لويلسن عرضا. وكان في ذلك الصباح في سورة من الغضب، فصب جامه علي. قال ان عدم تبصري في الأمور لا يحتمل، وانني يجب ألا اطلع علي اية ورقة في المكتب بعد الآن. وقد اعتذرت عن تلك الهفوة المعينة لكنه استمر قائلا: لقد اسأت اكثر من اي شخص آخر هنا، وإنني لو لم أكن على وشك المغادرة لطلبت فصلك منذ شهور.

الموضوع نشر ضمن اوراق الراحل عباس بغدادي في جريدة الجمهورية 1989

بيل وصفت العلامة أنستاس الكرملي بالخبيث.. وآمنت باستحالة تحقيق وعد بلفور وإقامة وطن قومي لليهود

السعيد والعسكري

ارتبطا بصداقة حميمة وتزوج كل منهما أخت الآخر عام 1910

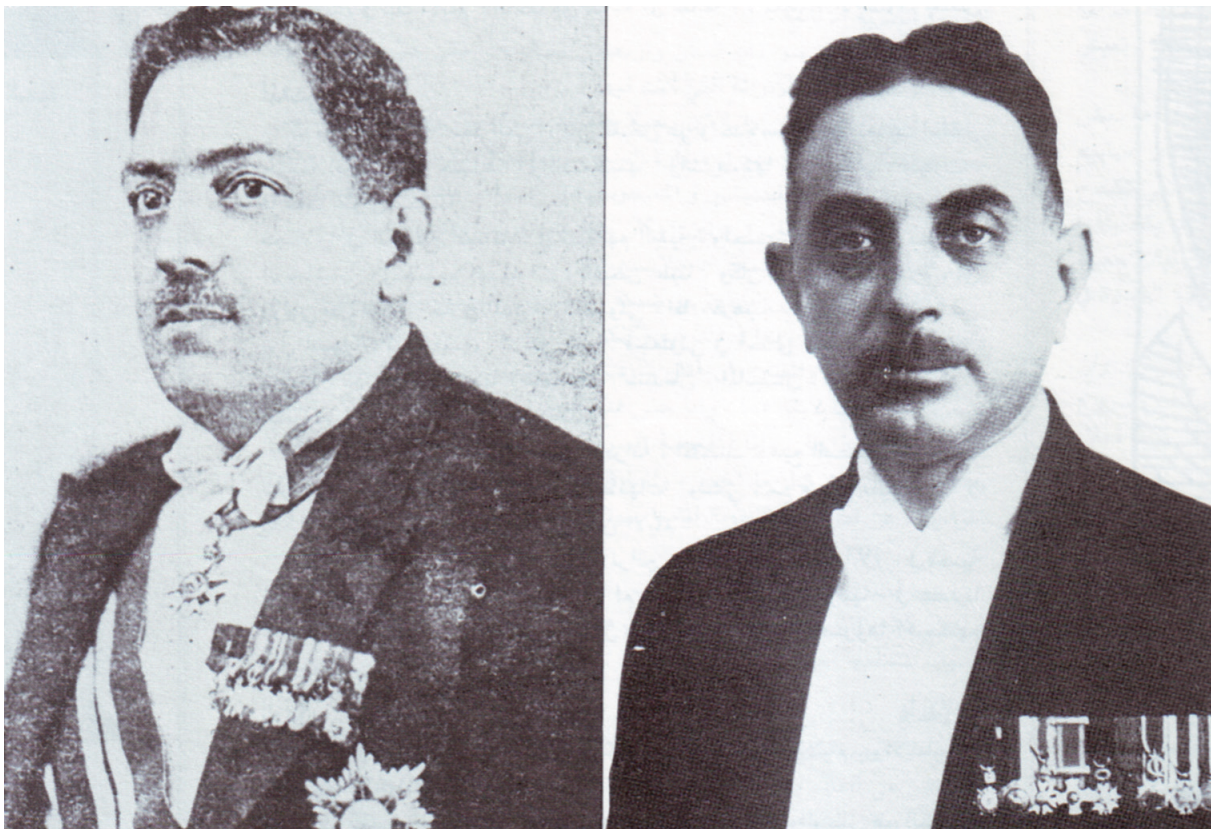

نوري السعيد

جعفر العسكري

ترجمة: سناء عبد الله

ولدنوري السعيد، ذو العينين الزرقاويتين، في بغداد عام ١٨٨٨، وهو الأبن الوحيد لسعيد أفندي المدققجي، من أحفاد لولو. وكان الجيش المكان المناسب الوحيد لأي صبي ينتمي الى أسرة طيبة ينشأ في بغداد العثمانية، حيث ذهب نوري الى مدرسة عسكرية داخلية تهيئ المرشحين للاكاديمية العسكرية في القسطنطينية. كاد نوري أن يلقي حتفه عندما كان في سن الثانية عشرة بسبب إصابته بمرض التيفوئيد، غير أن الطبيب الوحيد الذي كان في بغداد اعتني به طيلة مدة أزمته الصحية، وفي عام ١٩٠٣ كان نوري مؤهلا لبدء رحلته الشاقة إلى القسطنطينية للدخول في الدورة العسكرية التي تستغرق ثلاث سنوات. وهكذا غادر نوري مع ٧٢ صبيا آخرا على متن قافلة من البغال متوجهين الى الأكاديمية العسكرية في رحلة استغرقت ٢٧ يوما قطعوا خلالها صحراء انتشرت فيها العصابات حتى وصلوا إلى الاسكندرونة ليأخذوا من هناك قاربا حملهم إلى القسطنطينية. استغرقت الرحلة باكملها ٤٠ يوما حيث يقطع نوري اليوم المسافة نفسها بأقل من أربع ساعات بواسطة طائرة فيسكاونت يقودها طيار عراقي.

جمعية العهد

عاد نوري إلى بغداد بعد تخرجه من الأكاديمية برتبة ملازم ثان، وهو شاب رشيق وسيم بشارب ظهر في القسطنطينية، مع شعور كبير بالزهو بزيه العسكري. نُسب نوري كآمر فصيل في احدي المدن الحدودية، وسرعان ما جمعته علاقة صداقة حميمة بجعفر العسكري، وهو ضابط عربي قوي البنيان اجش الصوت أقدم منه ببضع سنوات. وفي عام ١٩١٠، كما يروي أحد أفراد الأسرة "تزوج الرجلان شقيقة أحدهما الآخر". ورغم أن العادات العربية لم تسمح لنوري بالتعرف على عروسته نعيمة لحين يوم الزواج، هيأ جعفر لشقيقته فرصة لرؤية نوري من زاوية احد الشبابيك قبل بضعة أسابيع من الزواج. تقول نعيمة: "كان رجلا وسيما- كما هو عليه الآن" وانجبت له ولدين (أحدهما تدرب على الطيران في سلاح الجو البريطاني الملكي كطيار مدني، ويعمل حاليا رئيسا لشبكة السكك الحديدية وشركة الطيران العراقية).

غادر الضابطان الشابان بعد الزواج بمعية زوجتيهما ووالدتيهما، على متن قافلة من البغال، إلى القسطنطينية للالتحاق بكلية الأركان هذه المرة. بعد وصولهما بوقت قصير، اندلعت الحرب في منطقة البلقان، والتحق نوري بجبهة القتال، غير أنه وجعفر صارا على قناعة تامة بأن فرص إحراز التقدم في وظيفتيهما كانت تحجب عنهما بشكل منتظم بسبب انتمائهما العربي. قال نوري معلقا على الأمر "إن كنا أجنبيين، فلنكن إذن أجنبيين". التحق نوري بجمعية العهد حيث عهدت اليه مسؤولية احدي خلاياها السرية سعيا لتحقيق الاستقلال للعرب عن الإمبراطورية العثمانية المحتضرة والمتهرئة. وضع جميع أعضاء الخلية خلال اجتماعاتهم أغطية حمراء فوق رؤوسهم بغية الحفاظ على سرية هوياتهم عن بعضهم البعض عدا نوري الذي كان عليه أن يكشف هويته. بعث أحد أعضاء الخلية في احد الأيام برسالة الى نوري يعتذر فيها عن حضوره الاجتماع بسبب مرض أصابه. ولما أدرك نوري أن غياب ذلك الرجل عن الاجتماع من الممكن أن يكشف هويته بسبب معرفة الآخرين بطبيعة مرضه، جلب نوري والدته ووضع الغطاء الأحمر على رأسها وتركها تجلس وسط المجتمعين طيلة فترة الاجتماع دون أن تنبس ببنت شفة لكي تشعر الحضور بأن عدد المجتمعين متكامل.

رباطة الجأش

في مطلع عام ١٩١٤، وبعد أن علم الأتراك بتآمره ضدهم، هرب نوري من القسطنطينية والتحق بإحدي مجاميع الثوار في البصرة. وهناك، عثر عليه البريطانيون، الذي دخلوا في الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك، أثناء رقوده في المستشفى للعلاج من مرض في الصدر ألم به. كان نوري، بالنسبة للبريطانيين، لا يزال ضابطا تركيا، فقاموا بإرساله إلى الهند كأسير، ووضعوه في معسكر واقع على تل حتى يتماثل للشفاء. بعد مضي عامين، عندما دعم البريطانيون الثورة العربية التي قادها الشريف حسين في الصحراء، تحدث نوري الى البريطانيين طالبا منهم أن يسمحوا له بالانضمام الى الحركة. وفي الحرب العربية، كتب لورنس عن نوري بعد ذلك في (أعمدة الحكمة السبعة) قائلا: "إن شجاعته، وقوته، ورباطة جأشه" ميزته كزعيم مثالي. ومضي لورنس قائلا "معظم الرجال كانوا يتحدثون بسرعة عندما يتعرضون الى النيران، ويتصنعون هدوءا وارتياحا كاذبا. غير أن نوري كان يزداد هدوءا في مثل تلك الأوضاع".

في مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩، حيث حصل العرب على أقل مما وعدهم به لورنس، رأي نوري زعيمه العربي، الأمير فيصل، وهو ثمل وفاقد للأمل بعد أن علم بعزم الفرنسيين على الاستحواذ على سوريا لمصلحتهم. ألقي فيصل بوسادة مقعد السيارة التي كانت تقله على مقر وزارة الخارجية الفرنسية أثناء مرور سيارته من أمامها.

أعلن العرب تنصيب فيصل ملكا على سوريا، ونوري رئيسا لأركان جيشه. غير أن فيصل الذي طرد من سوريا، تلقي عرضا بريطانيا للقبول بعرش العراق. وفي منطقة لا تبعد أكثر من ١٥٠ مترا عن مقر مكتبه الحالي، وقف نوري السعيد بكل زهو في أحد الأيام من عام ١٩٢١ الى جانب رئيسه أيام الحرب في حفل تتويجه كأول ملك على العراق.

التحق نوري بجمعية العهد حيث عهدت إليه مسؤولية احدى خلاياها السرية سعيا لتحقيق الاستقلال للعرب عن الإمبراطورية العثمانية المحتضرة والمتهرئة. وضع جميع أعضاء الخلية خلال اجتماعاتهم أغطية حمر فوق رؤوسهم بغية الحفاظ علي سرية هوياتهم عن بعضهم البعض عدا نوري الذي كان عليه أن يكشف هويته. بعث أحد أعضاء الخلية في احد الأيام برسالة إلى نوري يعتذر فيها عن حضوره الاجتماع بسبب مرض أصابه.

الولاية والغوغاء

تقول المستشرقة الشهيرة غيرترود بيل عن نوري "في اللحظة التي رأيته فيها، أدركت أننا بمواجهة قوة مرنة علينا إما أن نستخدمها أو أن ندخل معها في قتال مرير". نوري أيضا، من جانبه، واجه خيار القتال أو التعاون. وقد اختار التعاون. ترأس نوري الجيش خلال السنوات العشر الأولى من الإدارة البريطانية للعراق بتفويض من عصبة الأمم. في عام ١٩٣٠، أصبح نوري رئيسا للوزراء للمرة الاولى. وبدأ العراق تدريجيا باستعادة استقلاله رغم أن ذلك الاستقلال لم يكن بالسرعة التي تمناها المتهورون.

عندما قامت الغوغاء بصب الزيت على شرطي وإحراقه حيا، أو عندما هوجم نائب القنصل البريطاني بفأس، مزقهم نوري وأعدم قادتهم. وقد كلفته تصرفاته غير الودية تجاه البريطانيين فقدان منصبه بعض الوقت. لم يكن قادرا على إقناع البريطانيين أن يقدموا الحل الذي كان يفضله للقضية الفلسطينية، وعندما صدت دولة إسرائيل الفتية الجيوش العربية الغازية، كان العراق البلد العربي الوحيد الذي رفض توقيع أي هدنة مع الإسرائيليين المنتصرين. (يتسم نوري علنا بالديماغوجية حيال الإسرائيليين شأنه شأن أي زعيم عربي، ولكنه يدرك على انفراد حقهم في الوجود وقدرتهم على ذلك). في بعض الأحيان، عندما كان نوري خارج الحكم، خرجت الأمور عن نطاق السيطرة. عاد الى الحكم آخر مرة عام ١٩٥٤، وطبق صيغته النموذجية: أغلق ١٨ صحيفة، فاز بانتخابات مزورة (محققا أغلبية لم يحصل على أعلى منها سوي عبد الناصر عندما حصل على ٩٩,٨ بالمئة من الأصوات في الاستفتاء الرئاسي العام الماضي)، وألغي جميع الأحزاب وزج بالمئات من الشيوعيين في السجن. عمد بعد ذلك إلى تعزيز ولاء رجاله في السلطة من خلال مقاومة المقترحات الرامية الى فرض ضرائب على الشيوخ المالكين للأراضي، الذين يسيطرون على المناطق الريفية، ورفع رواتب الجيش وضباط الشرطة.

كان كافيا في وقت ما إخماد الإضطرابات داخل البلاد. غير أنه مع صعود جمال عبد الناصر في مصر وانتشار الدعاية التي بثها راديو القاهرة الى جميع العرب، وجد نوري نفسه معزولا خارجيا. كان قرار نوري الجريء برعاية حلف بغداد قد لاقي إدانة من جانب عبد الناصر بوصفه مساومة لصالح "الإمبريالية والصهيونية"، مما دفع ببقية القادة العرب بأن ينأوا بأنفسهم عنه. من جانبها، عمدت الأردن التي كانت قد دُفعت بطريقة فجة على أيدي البريطانيين للانضمام الى الحلف، الى طرد القائد البريطاني غلوب باشا، ووضعت جيوشها، الى جانب جيوش سوريا والسعودية، تحت أمرة القيادة المصرية المشتركة. قبيل غزو السويس، وقف العراق وحيدا في العالم العربي، فيما كسبت "الأمة العربية" التي نادي بها عبد الناصر المؤيدين في كل مكان.

ظاهريا، شكل غزو السويس ضربة لناصر، خصم نوري، وبالتالي نعمة له. غير أن هجوما بريطانيا وفرنسيا بالاشتراك، إن لم يكن بالتعاون الوثيق، مع عدو العرب الأول، إسرائيل، تسبب بأزمة طاحنة لدي الباشا. دعا نوري في الساعة الثانية صباحا الى عقد اجتماعا لمجلس الوزراء لم ينتهي الى عند الفجر.

في تلك الليلة، قرر نوري مد يد العون الى عبد الناصر، فقطع علاقاته مع فرنسا، وأبلغ البريطانيين أن العراق لن يجلس معهم لمناقشة أي من شؤون حلف بغداد حتى إشعار آخر، وأعلن أنه يتعين "إزالة إسرائيل". غير أن التفاتته تلك لم تمنع السوريين من تفجير أنبوب النفط المؤدي الى البحر الأبيض المتوسط- حيث كبد ذلك الحكومة العراقية خسارة في دخلها النفطي بلغت ٦٠ مليون دولار. في غضون ذلك كان راديو دمشق يردد "أيها العراقيون الأعزاء.. حطموا جدران سجونكم، وحرروا أنفسكم من القيود ومن خسة نوري السعيد".تفجرت العواطف المساندة لعبد الناصر داخل العراق متسببة بأعمال عنف في الموصل. ولقي نحو ٢٠ شخصا مصرعهم في قتال دار في شوارع النجف وكوت الحي. أما في بغداد فقد انطلقت مسيرة حاشدة ضمت نحو ٢٠٠٠ شخص قادها الطلبة في شوارع العاصمة حاملين صور عبد الناصر ومرددين شعارات: "تسقط الملكية. ويعيش عبد الناصر، قائد جميع العرب". أعلن نوري الأحكام العرفية، وأغلق المدارس، وعلق عمل البرلمان، والقى بمئات العراقيين في السجون. قامت شرطته أيضا باعتقال ثلاثة ضباط مصريين بتهم التخطيط لاغتيال الباشا. وصاح نوري "لم يولد بعد الرجل القادر على اغتيالي"، وقد تدلي مسدسه من على وسطه أينما ذهب خارج داره. قبل مغادرته لحضور اجتماع كراجي الأسبوع الماضي، رفع نوري أخيرا الأحكام العرفية: أخيرا ، مرت الأزمة بسلام. يدير نوري مهامه على نحو أسهل بكثير مما يفعله أي زعيم شاب يهوي البهرجة.

في بغداد، يستيقظ عند الساعة السادسة صباحا ويتناول قدحا من عصير الكريب فروت (ليمون الجنة) وفنجانا من القهوة فيما يستمع الى نشرة الأخبار الصباحية من إذاعة صوت أميركا.

وبعد جولة أولي من المداولات الهاتفية مع وزرائه عبر الهواتف المزودة بنظم التشويش، يتناول الفطور ثانية، المتكون من البيض، وينطلق مجتازا جسر دجلة باتجاه مكتبه بسيارة كرايسلر (مع عدد كبير من رجال الأمن الذين يتبعونه مرتدين ملابس مدنية).بعد أن يوجه مساعديه بشأن كيفية الرد على البريد الوارد اليه (لا يكتب نوري شخصيا أية رسائل عدا رسالتين يكتبهما أسبوعيا الى حفيديه في مدرسة في انكلترا)، يعود مسرعا الى داره للاستماع الى نشرة أخبار هيئة الإذاعة البريطانية عند الثانية ظهرا قبل أن يتناول غداءه وينال قسطا من النوم بعد الظهر. وإذا ما كان الجو مناسبا فقد يتناول الشاي على جانب دجلة، ويرمي بعض الأكل لعشرات البط الأسود الذي ينطلق نحوه عندما يناديه. ويتناول عشاءه بشكل دائم تقريبا مع الأصدقاء ذاتهم- مسؤول الدعاية خليل إبراهيم، والمسؤول عن الإعمار ضياء جعفر، ووزير المالية خليل كنة، وهو رجل يبلغ من العمر ٤٧ عاما، يساري سابق وموهوب، غالبا ما يوصف بأنه الوزير الأكثر احتمالا للنجاح. علما أن معظم أقرانه قد توفوا، ومعظمهم خلال أحداث عنف. يتردد نوري على القصر الملكي عدة مرات خلال الأسبوع، وهو الأمر الذي يعني الكثير في السياسة العراقية بسبب صلة القصر الوثيقة بالجيش والدماثة التي يتمتع بها ولي العهد الأمير عبد الإله. (على عكس ابن عمه حسين في الأردن، فان الملك الشاب فيصل لم يصبح حتى الآن مصدر قوة في اتخاذ قرارات الدولة). كما يزور الباشا العجوز مكتبه في وزارة الدفاع، غير أن ولعه الكبير هذه الأيام منصب على العمل في هيئة اعمار العراق، التي يراقب عملها عن كثب مثل دجاجة فخورة بفراخها.

مترجم عن مقال كتبه مراسل صحفي بريطاني قبل عام 1958

صورة نادرة تجمع نوري السعيد بحضور الجالغي البغدادي ويبدو الرصافي واقفا

في تلك الليلة، قرر نوري مد يد العون إلى عبد الناصر، فقطع علاقاته مع فرنسا، وأبلغ البريطانيين أن العراق لن يجلس معهم لمناقشة أي من شؤون حلف بغداد حتى إشعار آخر، وأعلن أنه يتعين "إزالة إسرائيل". غير أن التفاتته تلك لم تمنع السوريين من تفجير أنبوب النفط المؤدي إلى البحر الأبيض المتوسط- حيث كبد ذلك الحكومة العراقية خسارة في دخلها النفطي بلغت 60 مليون دولار.

قالوا عن السعيد:

الباشا قوة مرنة .. إما أن نستخدمها أو ندخل معها في قتال مرير

من ارشيف ذاكرة عراقية
من اليمين نوري السعيد، جعفر العسكري، علي جودة الايوبي

ذاكرة عراقية

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي ـ رفعت عبد الرزاق
التصميم : نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون